ذاكرة الكتابة

108

ذكريات اللواء
محمد صالح حرب

دراسة و تحقيق : د. أحمد حسن محمد الكنانى

مراجعة و تقديم : د. أحمد زكريا الشّلق

ذكريات
اللواء محمد صالح حرب

دراسة وتحقيق

د. أحمد حسن محمد الكنانى

مراجعة وتقديم

د. أحمد زكريا الشّلق

وزارة الثقافة

سلسلة
ذاكرة الكتابة
تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• ذكريات اللواء محمد صالح حرب
• دراسة وتحقيق:
د. أحمد حسن محمد الكنانى
• مراجعة وتقديم: د. أحمد زكريا الشلق
• مراجعة لغوية:
عبد الحميد عيسى غازي.
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2009م
160ص، 16,5 x 23,5 سم
• تصميم الغلاف: فكرى يونس
• رقم الإيداع: ١٩٢٥٢/ ٢٠٠٩
• الترقيم الدولى: 7-591-497-977-978
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

ذاكرة الكتابة (108)

تعنى بنشر أبرز الأعمال الفكرية والأدبية والنقدية التى طبعت فى بدايات القرن العشرين

ذكريات
اللواء محمد صالح حرب

المحتوى

تقديم

لقد كان من دواعي غبطتي أن دعاني الصديق العزيز أ.د. جمال حجر إلى كلية الآداب جامعة الإسكندرية في صيف عام ٢٠٠٦ لمناقشة رسالة دكتوراه أعدها حينئذ أحد تلاميذه، وهو الدكتور أحمد الكناني، تحت عنوان "محمد صالح حرب ودوره في القضايا الوطنية والإسلامية" وكانت أول دراسة علمية تتناول هذه الشخصية التاريخية؛ التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ مصر والعالم العربي المعاصر، وبالرغم من أن الدراسة كانت تدور حول هذه الشخصية، إلا أنها تناولت جانباً مهماً من نضالها ضد العدوان الإيطالي على ليبيا منذ عام ١٩١١م، ذلك الدور الذي امتد لدعم الدولة العثمانية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ضد الإنجليز وحلفائهم، بل امتد دور اللواء صالح حرب إلى الاشتراك في حروب الحركة القومية التركية في الأناضول ضد الحلفاء واليونانيين في أعقاب الحرب الأولى .

الرجل إذن متعدد الأدوار فقد كان مشاركاً في جبهات المقاومة والجهاد الإسلامي، فضلاً عن دوره الوطني في مصر قبل الحرب وبعدها .. ومن هنا تكتسب شخصيته أهميتها التاريخية، ليس فقط من خلال دوره الوطني والقومي الذي قام به في دعم وتأييد حركة الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي، ثم نضال الحركة القومية التركية (١٩١١ -

١٩٢٤) وإنما تكتسب هذه الشخصية أهمية جديدة عندما انتخب عضواً بمجلس النواب المصري (١٩٢٦ - ١٩٣٠) حين استطاع أن يثير ويناقش العديد من القضايا الوطنية خاصة ما يتعلق بالجوانب العسكرية مثل ضرورة تأمين الصحراء المصرية، وتسليح الجيش المصري وتحديثه، والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية...

وكانت القضايا التي أثارها، مع خلفيته العسكرية وخبرته في ميادين القتال، قد أهلته لكي يعين وزيرا للدفاع الوطني في وزارة علي ماهر (١٩٣٩ - ١٩٤٠) حين أخذ على عاتقه مهمة تطوير الجيش المصري وتحديثه ، والتصدي لنفوذ البعثة العسكرية البريطانية وتثبيت أقدام العناصر الوطنية المصرية فيه، فضلاً عن محاولته مع علي ماهر تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية، وهي السياسة التي أدت إلى صدامه مع الإنجليز، وإن كان نشاطه مع عزيز المصري قد أثار الشعور الوطني داخل الجيش، خاصة لدى فئات الضباط الذين شكلوا فيما بعد خلايا الضباط الأحرار وقادوا ثورة ٢٣يوليو ١٩٥٢ .

وعندما أسقط الإنجليز وزارة علي ماهر لم يشأ صالح حرب أن يكف عن النضال وإنما شرع يقاوم النفوذ البريطاني من خلال رئاسته لجمعيات الشبان المسلمين منذ عام ١٩٤٠، وكان من المخططين لإنقلاب عسكري، بالاشتراك مع رفيق نضاله عزيز المصري وبتأييد من الملك فاروق والألمان، كما هو معروف، وعندما وقع حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ندد بموقف الإنجليز وجعل يحرِّض الضباط الشبان للإحتجاج على هذا الموقف المهين، مما أثار سلطات الإنجليز في مصر وجعلها تعتقله وتحدد إقامته بين عامي ١٩٤٢و ١٩٤٥ لكنه لم يلن، ورفض مساومة الإنجليز لمنحه حريته مقابل تركه رئاسة جمعية الشبان المسلمين، وقد سجل التاريخ له دوراً وطنياً جديداً عندما دعا إلى تكوين تنظيمات من الشباب وقام بجهود كبيرة في تنظيم وتدريب كتائب الفدائيين لمقاومة الإنجليز في منطقة القناة عام ١٩٥١.

وقد لفت نظري عند مناقشة رسالة الدكتور أحمد الكناني أنه استعان بذكريات كتبها اللواء صالح حرب، وعرفت منه أنه جمع حلقاتها من مجلة الشبان المسلمين، فاقترحت عليه إعدادها للنشر وتزويدها بما يستطيع من التحقيقات تمهيداً لنشرها بشكل مستقل ولتكون مصدراً من مصادر التاريخ المعاصر، وقد استجاب لذلك مرحباً، وأنجز هذا العمل الذي تشرف هذه السلسلة بنشره في هذا العدد ليكون متاحاً للدارسين والمثقفين جميعاً.

ولست أحب أن أسبق القراء الكرام إلى عرض أفكار هذه الذكريات حتى لا أضيع عليهم متعة قراءتها أو أحول بينهم وبين كاتبها، لكن حسبي أن أشير إلى أهميتها فيما تضمنته من شهادة على دعم مصر لحركة الجهاد الليبي ومعارك الصحراء وتفاصيلها وكذلك مقاومة الأتراك سياسيا وعسكريا، ودور الحزب الوطني في هذا الشأن .. وكذلك إماطتها اللثام عن مشروع بريطاني يستهدف تكوين إمبراطورية بريطانية في إفريقيا، تمتد من السلوم حتى جنوب القارة، وكيف استطاع صالح حرب ورفاقه فك شفرات المراسلات البريطانية لخطة هذا المشروع وإفسادها، فضلاً عن جهوده ورفاقه للحفاظ على الأراضي المصرية من السلوم إلى حدود السودان.

ومن الموضوعات المهمة والمثيرة التي قدمت هذه الذكريات شهادة بشأنها تأتي مسألة إشعال صالح حرب للثورة ضد الإنجليز في أواخر عام ١٩١٥ وانضمامه إلى القوات السنوسية، حيث كان قائداً للقوات المصرية في الصحراء والواحات، وظل يقود حركة المقاومة ضد الإنجليز حتى أواخر عام ١٩١٨ وربما كانت هذه أول ثورة عسكرية يقوم بها مصري ضد الإنجليز منذ عام ١٨٨٢وقد استطاع خلالها قيادة عمليات عسكرية ضد الإنجليز بعد أن استولى على الواحات، وكبد الإنجليز خسائر فادحة في العتاد والأرواح.

ويتابع صالح حرب في ذكرياته الحديث عن نشاطه على الجبهة التركية بعد أن انتقل إلى استانبول في أعقاب الحرب العالمية الأولى وحتى بروز الحركة الكمالية فقدم روايات وشهادات عن مشاركته للحركة القومية التركية في الأناضول، حيث كان ينظر إليها باعتبارها حركة جهاد إسلامي، في بداية نشأتها، كما لعب دوراً في تكوين الجيش التركي الحديث وساهم في معاركه، حيث كان ينظر إلى مصطفى كمال باعتباره قائدا وطنيا ينقذ بلاده من قوات الاحتلال.

وأخيراً فإن هذه الذكريات تمدنا بمعلومات جديدة عن نشاط جمعيات الشبان المسلمين ونشاطها الوطني خلال الأربعينيات، خاصة فترة رئاسته لها، مما يعد مصدراً من مصادر دراسة الحركات الدينية في مصر المعاصرة..

وسوف نلاحظ أن صالح حرب لم يلتزم السياق التاريخي في تسلسله الزمني عندما بدأ في نشر هذه الذكريات، ففي الحلقة الثالثة انتقل إلى الحديث عن موقف مصر خلال الحرب العالمية الثانية(١٩٣٩ – ١٩٤٤)، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الحديث عن نشاطه خلال الحرب

العالمية الأولى ملتزماً بالسياق التاريخي.. وثمة ملاحظة أخرى تتمثل في أنه كان يكتب حلقات ذكرياته بنفسه كراوية لها حتى الحلقة التاسعة، وأنه سجل ما تبقى منها في شكل أحاديث صحفية فاتخذت شكل حوار بينه وبين محرر الصحيفة.

ولا ينقص ذلك من أهمية هذه الذكريات وقيمتها التاريخية، باعتبارها شهادة عن دور مهم قام به صاحبها.. عبر مراحل متعددة من حياته الخصبة، بما تضمنته من معلومات جديدة، وآراء جديرة بالدرس والاهتمام، فتحية إلى روح محمد صالح حرب قائداً وطنياً مخلصاً ، ومناضلاً ضد الاستعمار، ومدافعاً عن قضايا العروبة والإسلام.

والله المستعان

د. أحمد زكريا الشلق

القاهرة في ٩ أغسطس ٢٠٠٩

هذه الذكريات

دراسة: د.أحمد حسن الكنانى

تعد المذكرات والذكريات مصدرا مهما من مصادر الكتابة التاريخية، وذلك لأنها تسجل تجربة المرء الشخصية ومشاهداته وما سمعه بأذنيه، وما قام به من أعمال، سواء سجل فى وقته ويومه، أو سجل بعد أن يصبح ذكرى.

وبطبيعة الحال فإن ما يسجل فى يومه ووقته يكون عادة أكثر دقة مما يسجل بعد أن تمضى عليه فترة من الزمن، وفى الوقت نفسه فإن ما يسجل فى وقته ويومه يكون أقرب إلى الواقع وأبعد عن التبرير والدفاع عن النفس. ومذكرات اللواء صالح حرب هى من نوع الذكريات التى كتبت بعد فترة من الزمن، وبالتالى فهى تحمل وجهة نظره الخاصة فيما قام به من أعمال، كما أنها تسلط الضوء على أحداث مهمة فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر وحركة الجهاد الإسلامى فى كل من ليبيا وتركيا، من خلال اشتراكه فيها وارتباطه بزعماء العالم الإسلامى من عام ١٩١١ إلى عام ١٩٦٧، وهى فترة بالغة الأهمية تكشف الغطاء عن صفحات مطوية من جهاد فريق من أبناء مصر، بذلوا العون لإخوانهم فى العروبة والإسلام فى النصف الأول من القرن العشرين، وتجاهل الإنجليز جهادهم عمدا، وطمسوا حقيقته فى مقاومة الاستعمار.

والجدير بالذكر أن صالح حرب (١٨٨٩- ١٩٦٨)، كان حريصا على تدوين مذكراته

منذ تخرجه فى سلاح الحدود ١٩٠٣م، إلا أن تلك المذكرات فقدت ثلاث مرات وذلك بسبب حياته العسكرية غير المستقرة، وقد أشار صالح حرب إلى ذلك فى بداية ذكرياته، فذكر أن مذكراته الأولى تبدأ منذ ترقيته برتبة ملازم ثان إلى أن بلغ رتبة اليوزباشى (نقيب) وصار قائدا لأساس الهجانة والسواحل والحدود بمرسى مطروح، وتنتهى ليلة إعلانه الثورة على الإنجليز فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٥ حيث ضاعت مذكراته الأولى عندمانسيها فى سكنه بثكنة مرسى مطروح، أما مذكراته فى المرة الثانية والتى تبدأ منذ إعلان الثورة على الإنجليز وحتى موقعة «أورفلة» ضد الإيطاليين سنة ١٩١٧م، فقد ضاعت مع استشهاد ياوره إبراهيم عوض الذى كانت المذكرات فى حوزته. أما مذكراته فى المرة الثالثة والتى كانت تبدأ منذ وصوله سنة ١٩١٨م إلى استانبول وحتى تم النصر للحركة التركية بقيادة مصطفى كمال، فقد تركها فى حوزة ضابط طرابلسى صديق وعاد إلى مصر فى سنة ١٩٢٤م، ولكن هذا الضابط توفى.

وبسبب فقدان صالح حرب لمذكراته، أحجم عن كتابة المذكرات بعد ذلك، واكتفى بكتابة الذكريات اعتمادا على الذاكرة، وهى الذكريات التى بين أيدينا.

نشرت تلك الذكريات فى مجلة الشبان المسلمين فى فترات متباعدة(١)، وذلك بسبب انشغال صاحبها- بحكم منصبه رئيسا عاما لجمعيات الشبان المسلمين- بقضايا العالم العربى والإسلامى من ناحية، ومن ناحية أخرى اشتداد المرض عليه حتى توقفت تماما فى عام ١٩٦٦.

وقد نوهت المجلة أنها سوف تنشر حلقات جديدة من تلك الذكريات، بيد أن المرض اشتد على صالح حرب مما اضطره إلى تقديم استقالته من رئاسة الجمعية فى إبريل ١٩٦٧، وتوفى فى يناير ١٩٦٨، فتوقفت بذلك بقية الذكريات.

وتتكون هذه الذكريات من أربع عشرة حلقة، ولها عناوين جانبية فى كل حلقة، ومزودة بصور ووثائق(٢)، ويتميز أسلوبها بدقة الوصف والبلاغة الأدبية(٣). ولم يلتزم راويها الترتيب التاريخى، ولكنها مرتبة ومسلسلة حسب المواضيع والأحداث التاريخية التى عاصرها أو شارك فيها سواء بالجهاد أو الاستشارة أو صنع القرار(٤). ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن هذه الذكريات لم تكتب بغرض تضخيم للذات أو تبرير لموقف أو افتعال لدور أو تجن على شخصيات تاريخية، وإنما لتكون شهادة للتاريخ ومثل يمكن تقديمه لأبناء العروبة والإسلام.

وبوجه عام، تعد هذه الذكريات صفحات مضيئة لجهاد ونضال صالح حرب وفريق من أبناء مصر، ولعل هذا أكبر دافع لإعادة نشرها لكشف الستار عن جهاد ذلك الفريق فى فترة مهمة من فترات الكفاح للتحرر من الاستعمار فى التاريخ الحديث سواء فى مصر أو ليبيا أو تركيا. هذا بالإضافة إلى رفع الغبن الواقع على صالح حرب كشخصية تاريخية تميزت بالاتجاه الوطنى والإسلامى، فى حين نال أقرانه (عزيز المصرى وعبدالرحمن عزام على سبيل المثال) حقهم من الدراسات التاريخية المختلفة(٥).

ويجب الإشارة والتنويه إلى أنه لايمكن الفصل بين ذكريات صالح حرب، وشخصيته فالارتباط بينهما شديد وهو ما يشكل إحدى الظواهر السياسية والعسكرية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر. ونظرا لهذا الارتباط فإنه من الطبيعى قبل التعرض لدراسة هذه الذكريات وإلقاء الضوء على أهميتها أن نعرف بصاحبها بإيجاز شديد.

واللواء محمد صالح حرب شخصية بارزة فى عالم العسكرية المصرية، وفى عالم السياسة المصرية والعربية والإسلامية، فقد كان نائبا برلمانيا فى الفترة من (١٩٢٦حتي١٩٣٠م) ووكيلا لمصلحة السجون بين عامي (١٩٣٠و١٩٣٩) ومديرا لخفر السواحل من (يناير ١٩٣٩- أغسطس ١٩٣٩م)، ووزيرا للدفاع فى وزارة على ماهر الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٠)، ثم رئيسا للمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين من عام ١٩٤٠ حتى ١٩٦٧. وتبين لنا سيرته انه ولد فى جزيرة «الحربياب» إحدى قرى مركز «دراو» فى مديرية أسوان سنة ١٨٨٩(٦)، وكان جده (محمد بك على) مهندسا عسكريا برتبة البكباشى (المقدم) ولقد أرسلته السلطات المصرية إلى السودان لعمل الاستحكامات الحربية. وعندما استتب الأمر لمصر هناك اتخذ دنقلة مقاما له حيث تلقى ولده (صالح) تربية هيأته لأن يكون حاكما عادلا لخط دنقلة فأصهر إليهم ووصل رحمه بأشرافهم، حيث تزوج من (شلباية) ابنة مصطفى عثمان كيكى أم محمد صالح حرب(٧)، ولم تنجب غيره. وعندما قامت الثورة المهدية فى السودان رحل (صالح) بأهله إلى أسوان حيث تم تعيينه مديرا للجباخانة، وهناك أنجب ابنه محمد صالح حرب. وقد توفيت والدته ودفنت في أسوان، وتزوج والده من السودان من عائلة (قناوى) وأنجب منهم، وبذلك أصبح لمحمد صالح حرب إخوة فى السودان(٨). ولهذا كان يطلق عليه (ابن النيلين) و (ابن مصر والسودان)(٩).

تلقى محمد صالح حرب تعليمه الأولى من مبادئ القراءة والكتابة بمكتب القرية واشتهر بين أقرانه بمتانة حفظه للقرآن، فكان ذلك أهم عامل فى تكوينه الإسلامى منذ الصغر. وعندما التحق بمدرسة أسوان الابتدائية، جمعه مع (عباس العقاد) فصل واحد(١٠)، وفى تلك الفترة ظهرت تطلعات صالح حرب المبكرة نحو القيادة، فلم يكن يطلب من الله شيئا أثناء دعائه فى ليلة القدر إلا أن يكون قائدا عظيما(١١) ولقد تأثرت شخصيته تأثرا كبيرا بأساتذة المدرسة، إذ كان مدرس التاريخ يشجع على إثارة شعور الغيرة لدى التلاميذ الصغار ضد الاحتلال الإنجليزى. وبعد أن أتم دراسته الابتدائية سافر إلى القاهرة والتحق بمدرسة العباسية الثانوية، حيث ظهرت ميوله للقراءة والبحث والاطلاع، وكذلك حبه للرياضة والنشاط، مما دفعه إلى الالتحاق بالمدرسة الحربية، ولكن المدرسة الحربية فى تلك الفترة امتنعت عن قبول طلاب جدد فالتحق بمدرسة خفر السواحل وتخرج فيها فى سنة ١٩٠٣. وبعد تخرجه عين فى وظيفة ضابط حدود بخفر السواحل برتبة ملازم ثان، ثم رقى إلى رتبة ملازم أول فى غير دوره تقديرا له حين قبض على عصابة كبيرة للمخدرات(١٢).

ويعد صالح حرب أول مصرى يرقى قومندانا لقسم الضبعة وهو ملازم أول، وهو ما يدل على كفاءته، وفى تلك الفترة أتيحت له فرصة دراسة أخلاق العرب الضاربين فى تلك الأنحاء ومعرفة أصولهم وعوائدهم، مما أدى إلى توثيق صلته بالعرب فى الصحراء الغربية. وبسبب ما تجلى فى عمله من المقدرة وحسن الإدارة رقى فى عام ١٩١٢ إلى رتبة اليوزباشى (النقيب)، وفى أوائل ١٩١٤ عين قومندانا لقسم مرسى مطروح. وأصبح الحاكم العسكرى والمدنى لمنطقتى مرسى مطروح وسيوه.

ومما سبق يتضح لنا أن نشأته الدينية، وظروف تعيينه فى الصحراء الغربية وكفاءته، قد أدت إلى ارتباطه بتيار الجامعة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية(١٣)، مما كان له عظيم الأثر فى ارتباطه بحركة الجهاد فى ليبيا ثم بحركة الجهاد الإسلامى فى الأناضول.

ومن خلال الذكريات نكتشف بحق الخط الوطنى الإسلامى لكاتبها فى وقت لم يشتد فيه بعد عود الحركة الوطنية. فنجد انه بحكم منصبه كضابط بالصحراء الغربية فى سلاح خفر السواحل يقوم بتهريب الأسلحة والمؤن والقادة إلى ليبيا لمقاومة الغزو الإيطالى، وأن موقعه هذا كان ذا أهمية كبيرة لزعماء الحزب الوطنى فى مصر وفى مقدمتهم الأمير عمر طوسون وعبدالعزيز جاويش. ومن هنا بدأ صالح حرب تدوين ذكرياته منذ الغزو الإيطالى

لليبيا عام ١٩١١، وهى ذكريات مهمة توضح دور الحزب الوطنى وقيادته فى مساعدة المجاهدين الليبيين بإمدادهم بالمؤن والسلاح، وفى التنسيق مع القيادات التركية بتهريب القواد الأتراك لتدريب الليبيين. وتؤكد مذكرات أنور باشا التاريخية الدور الذى لعبه صالح حرب فى تهريب العسكريين الأتراك إلى برقة وطرابلس عندما كان قومندانا لفرقة عسكرية مرابطة فى الغرب(١٤)، وهذا الأمر قد أكده السفير الإيطالى فى لندن المركيز امبريالى (Marqu Amperiali) للحكومة البريطانية حيث ذكر «إن الحكومة الإيطالية تلقت تقارير تؤكد أن نحو مائة ضابط تركى متنكرين فى زى البدو نجحوا فعلا فى العبور إلى برقة من مرسى مطروح وأن رحلتهم قد لقيت تسهيلات كبيرة من خفر السواحل المصريين(١٥)، وكان لصالح حرب الدور الأكبر فى هذه التسهيلات بحكم منصبه، وفى ذلك يقول: «كنت أخفى هؤلاء القادة والضباط الأتراك فى بيتى وكنا ننبه على الدوريات التى فى الخدمة بأن تسهل مرورهم»(١٦).

لم يقتصر دور صالح حرب على تهريب العسكريين الأتراك، وإنما امتد إلى تهريب المؤن والذخائر إلى المجاهدين الليبيين، فعندما اشتكت إيطاليا من وجود الضباط المصريين على رؤوس الدوريات، استبدل ضباط إنجليز بالضباط المصريين، الأمر الذى ساعد أكثر على تهريب المؤن والذخائر، وفى ذلك يقول: «هذا كان باب فرج لمضاعفة الجهود؛ لأن وجود هؤلاء الضباط الإنجليز رفع عن الضباط المصريين مسئوليات كثيرة، كما أن هؤلاء الإنجليز لم يكونوا على علم كاف بالصحراء وأسرارها فأصبح التهريب أكثر سهولة(١٧).

وعندما أنشئ الهلال الأحمر بمساعدة الأمير عمر طوسون، توافدت القوافل والمؤن والأدوات الطبية لعلاج الجرحى والمصابين، فأرسل صالح حرب رسالة إليهم يطالبهم بإرسال الأسلحة والذخيرة مفككة فى أجولة الأرز والدقيق، وبالفعل وصلت هذه الأسلحة رغم الرقابة الشديدة التى فرضها الإنجليز(١٨). ويؤكد الضابط محمود لبيب فى مذكراته الصلة الوثيقة بين صالح حرب واليوزباشى البحرى (محمد فهمى أبوميز)، الذى لعب دورا كبيرا فى تهريب الأسلحة من تركيا بحرا إلى مصر (جهة العميد بالصحراء الغربية) ومنها بدأت رحلة تهريب السلاح إلى المجاهدين عن طريق صالح حرب، وعندما شعرت إنجلترا بهذه الخطة خرجت رسالة شفوية من كتشنر «Kitchener» فى القاهرة إلى هانتر Hunt-er قائد عام سلاح الهجانة بالسلوم تحمل هذا المعنى: «خرج من جهة العميد ثلاثمائة جمل

محملة بالسلاح والذخيرة ووجهتها الغرب، فاعمل كل المحاولات لضبطها وعدم إفلاتها»(١٩). ولم يتردد صالح حرب فى تهريب هذه الحملة إلى المجاهدين وذكر لزملائه الضباط أنه لابد من تهريبها حتى لو أدى الأمر إلى انضمام الضباط والجنود المصريين إلى صفوف المجاهدين بلا عودة.

ولم يدرك «هانتر» الدور الذى يلعبه صالح حرب فى الخفاء لتهريب المؤن والسلاح، فكان أن انتخبه على رأس قوة من الهجانة السودانيين قوامها ثمانون جنديا بقيادة القائمقام «موريس بك» لتعقب هذه الحملة وضبطها، فاستطاع صالح حرب أن يخدع موريس بك عن طريق الاستعانة بأعرابيين كانا على اتصال برجال الحملة، وتمكن الأعرابيان من خداع موريس بك، وأقنعاه بأن من الصعب والمخاطرة تعقب هذه الحملة فكان أن قرر العودة إلى معسكر السلوم. وبهذه الحيلة وصلت الحملة إلى معسكرات المجاهدين(٢٠).

وتضيف لنا الذكريات جديدا بذكرها حادثة تاريخية مهمة، لم تذكرها المصادر العربية أو الأجنبية من قبل، وهو المخطط الذى كانت إنجلترا تعمل على تنفيذه وهو مشروع تكوين إمبراطورية إفريقية تمتد من السلوم إلى جنوب إفريقيا، وأطلقت عليه اسم مشروع (كيبتاون – السلوم) وذلك برفع العلم الإنجليزى على السلوم قبل الحرب العالمية الأولى، واستطاع صالح حرب وزميل جهاده محمود لبيب فك الشفرة السرية للتلغرافات المتبادلة بين (كتشنر) و (هانتر) بخصوص هذا المشروع، وتمكن مع زملائه ضباط وجنود خفر السواحل من إحباطه ورفع العلم المصرى على السلوم، وبذلك أمكن المحافظة على أرض مصرية تمتد من السلوم إلى حدود السودان وتبلغ مساحتها ٧٥ ألف كيلو متر.

ومن ناحية أخرى، تسلط الذكريات الضوء على الوضع على الجبهة الطرابلسية مع نشوب الحرب العالمية الأولى، وعلى الخطة التى رسمها الأتراك والألمان باشراك السيد أحمد السنوسى معهم فى الهجوم على حدود مصر الغربية وتجهيز حملة لهذه الغاية، وذلك بغرض تكبيد إنجلترا قدرا من الخسائر يضطرها لتحويل جزء من قواتها العسكرية على الحدود المصرية الغربية عن القوى الألمانية والتركية فى جبهات أخرى. ويتضح من الذكريات أن رأى السنوسى كان يتعارض مع مشروعات الحملة على حدود مصر الغربية، خاصة وان القوات السنوسية لم تكن فى وضع عسكرى يسمح لها بالاشتراك فيها. ومن

جانب آخر أوضح صالح حرب تفاصيل الدور الذى لعبه القائدان التركيان جعفر العسكرى ونورى باشا للزج بالسنوسى فى هذه الحملة دون الاستعداد الكافى، وتدبيرهما الخطط لفصم العلاقات القائمة بين السنوسى والإنجليز، ولما كان صالح حرب على وعى بدور كل من جعفر ونورى للزج بالسنوسى فى هذه المعارك دون الاستعداد، فقد استطاع أن يحبط خططهما، كما استطاع أن يحبط مؤامرتهما التى تسببت فى انشقاق الأسرة السنوسية (السيد السنوسى وأخيه هلال)، وأن يرأب الصدع بينهما.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى حادثة تاريخية تناولتها الذكريات بالتفصيل ولم تبرزها المصادر العربية أو الأجنبية من قبل، ألا وهى قيام صالح حرب بالثورة ضد الإنجليز فى نوفمبر ١٩١٥م، فقد نجح جعفر ونورى فى الدفع ببعض العناصر من القوات السنوسية للهجوم على السلوم وسيدى برانى دون علم السنوسى، مما جعل الإنجليز يعتقدون باقتناع السنوسى بخطة القواد الأتراك، فاتخذوا الاستعدادات للقضاء على القوات التركية - السنوسية كى يتفرغوا للحملة التركية القادمة من الشرق عن طريق قناة السويس، وهذا الأمر جعل موقف صالح حرب صعبا، إذ كان القائد الوحيد فى الصحراء الغربية الذى يعلم مدى قوة الإنجليز وتصميمهم على سحق القوات التركية - السنوسية فاقتضى الأمر أن يحدد موقفه بسرعة، فكان من الطبيعى كقائد مسلم أن ينضم ومعه بعض القوات المصرية إلى القوات السنوسية.

ولم يكن انضمام صالح حرب للقوات السنوسية وليد اللحظة إذ أن تلك الفكرة كانت فى ذهنه منذ إعلان الإنجليز الحماية على مصر(٢١). ومن ناحية أخرى، كان الإنجليز يخشون من انضمام صالح حرب إلى السنوسى، ولهذا حاولوا منح صالح حرب إجازة مفتوحة، ولكنه رفض، واستطاع أن يحشد عددا من قبائل (أولاد على) للانضمام إلى السنوسى، وأعلن الثورة فى ١٩١٥/١١/٢٧ فى صحراء مصر الغربية، وكانت هذه الثورة هى البداية الحقيقة للمعارك التى نشبت بين الإنجليز والقوات التركية - السنوسية المشتركة، حيث اشترك مع السنوسيين والأتراك فى محاربة الإنجليز فى الصحراء الغربية وانفرد بالقيادة فى صحراء مصر وواحاتها عندما انهزم نورى شقيق أنور باشا وانسحب إلى برقة، وأسر جعفر، وبقى صالح حرب وحده يناوئ الإنجليز إلى سنة ١٩١٨.

وتعد هذه الثورة هى أول ثورة عسكرية يقوم بها مصرى ضد الإنجليز منذ الاحتلال

البريطانى لمصر عام ١٨٨٢، وأول ثورة مسلحة قبل ثورة ١٩١٩.

وقد استطاع صالح حرب الدخول فى حرب عصابات ضد الإنجليز بعد استيلائه على الواحات (١٩١٦- ١٩١٨) حيث عينه السنوسى قائدا عاما لقوات المجاهدين وأن يكبد الإنجليز خسائر مالية بلغت ستة وخمسين مليون جنيه، حسب تقدير جريدة التيمس البريطانية بالإضافة إلى احتجاز قوات كبيرة من الإنجليز كانوا فى اشد الحاجة إليها لاستخدامها فى الدردنيل وقدرت بخمسة وثلاثين ألف جندى(٢٢).

وعندما فشلت آخر حملة للجيوش العثمانية على قناة السويس، انسحب صالح حرب وقواته من الحدود المصرية بعد آخر موقعة بينه وبين الإنجليز فى واحة (قربة) غرب سيوه، واضطرتهم ظروف الحرب إلى الرحيل غربا.

***

لقد فرضت تطورات الأحداث على السيد أحمد السنوسى أن يذهب ومعه صالح حرب إلى الآستانة بحثا عن مساعدة الأتراك لهم فى استرداد نفوذه فى منطقة طرابلس حيث إن زعيمهم (رمضان السويحلى) رفض الاعتراف بسلطة السيد أحمد السنوسى كممثل للسلطان العثمانى فى منطقة طرابلس، بيد أن الأمور سارت بهما فى مجرى آخر، حيث كانت الحركة الوطنية التركية فى مرحلة المخاض، وهى الحركة التى قادها مصطفى كمال بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، فرأى السلطان أن يغادر السيد السنوسى ومعه صالح حرب الآستانة قبل أن يدخلها الحلفاء، فاتجها إلى مدينة (بروسة) فى الأناضول.

ويمكن القول إن ذكريات صالح حرب تعد مصدرا مهما عن تطورات الأحداث فى تركيا منذ نهاية الحرب العالية الأولى وهى الفترة التى تعرف باسم حركة التحرير الوطنية التركية، إذ كان صالح حرب شاهدا عيانا لها ومشاركا فيها.

ففى تلك الفترة، برز اسم مصطفى كمال (الذى عرف فيما بعد باسم أتاتورك) واستطاع أن يقود تلك الحركة فى البداية تحت راية الإسلام، فكان من الطبيعى أن يسعى لضم السيد السنوسى فى حربه ضد (الكفار)، فيكتب إليه خطابا يفيض وطنية وغيرة على الإسلام، ويتبين من الذكريات مدى إعجاب صالح حرب الشديد بوطنية وغيرة مصطفى كمال الإسلامية فى البداية، وهو ما يتضح من وصف صالح حرب لخطاب مصطفى كمال

بقوله: «أنه خطاب لا يكتبه إلا مسلم مؤمن شديد الإيمان إلى حد التصوف»(٢٣).

ومن الواضح أن ذلك الخطاب قد ترك تأثيرا قويا فى السيد السنوسى وصالح حرب، مما حملهما على الانضمام إلى الحركة الوطنية التركية وتأييد مبادئها. وقد أفاض صالح حرب فى ذكرياته عن دوره فى تكوين الجيش التركى الحديث واشتراكه فى المعارك العسكرية التى قادها ذلك الجيش حتى النصر. كما تبرز الذكريات دور السنوسى وصالح حرب فى مسألة الوفد العراقى الذى كان موفدا من الحكومة الثائرة فى العراق لضم السنوسى وصالح حرب إلى مقاومة الإنجليز.

ويتضح من الذكريات إعجاب صالح حرب الشديد بمصطفى كمال كقائد عسكرى استطاع أن ينقذ تركيا من براثن المحتلين الأجانب، ولهذا كان دائم الاستشهاد فى خطبه ببطولات الشعب التركى وقواده من أمثال مصطفى كمال وعصمت اينونو(٢٤). ومن ناحية أخرى، توضح الذكريات مدى تقدير مصطفى كمال لجهود صالح حرب فى حرب التحرير التركية، عندما أصدر أمرا بدخول صالح حرب كلية أركان الحرب التركية(٢٥)، وهو ما يمثل تقديرا كبيرا لصالح حرب إذ كانت تلك الكلية لايدخلها إلا الأتراك فقط.

وتنبغى الإشارة إلى أن تلك الذكريات هى مصدرنا الوحيد فى اللغة العربية عن دور صالح حرب فى الحركة الوطنية التركية، والأمل معقود على إبراز ذلك الدور بشكل أوسع من خلال الوثائق التركية.

وكم كنا نتمنى أن يستكمل صالح حرب ذكرياته ليتناول فترة مهمة فى حياته عندما عاد إلى مصر عام ١٩٢٤ بعد إصدار العفو عن المسجونين السياسيين فى عهد وزارة سعد زغلول، وأصبح نائبا برلمانيا من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠، ليصبح بذلك أول ضابط سابق برتبة صغيرة يصل إلى مجلس النواب عن طريق الانتخاب وليس التعيين(٢٦). وكانت آراؤه ومقترحاته فى المجلس تهدف إلى تحقيق استقلال مصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وإلى جلاء الإنجليز، وتجلى ذلك فى مطالبته بإلغاء الامتيازات الأجنبية والمطالبة بالجلاء التام وإصلاح التعليم، ومشروعه الاقتصادى الكبير بتوليد الكهرباء من خزان أسوان(٢٧).

والأمر كذلك بالنسبة لدوره فى وزارة الدفاع فى الفترة من عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٠م، وهى الفترة التى عمل فيها على تحديث الجيش المصرى ومقاومة نفوذ البعثة

العسكرية البريطانية وبث الروح الإيمانية والمعنوية فى الجيش والشعب، وتوطيد أقدام القيادات الوطنية فى الجيش المصرى.

وإذا كان صالح حرب قد ألقى الضوء فى ذكرياته على الحرب العالمية الثانية والأسباب التى أدت إلى اتخاذ سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب، وكذلك موقفه وموقف جمعية الشبان المسلمين من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ إلا إنه لم يتناول الدور الذى قام به مع عزيز المصرى للتخطيط لطرد الإنجليز من مصر بالقوة العسكرية بمعاونة الألمان وموافقة كل من الملك فاروق وعلى ماهر، وهى الخطة التى أظهرتها الوثائق الألمانية فيما بعد(٢٨).

أما الفترة الممتدة من عام ١٩٤٠ وحتى وفاته عام ١٩٦٨، وهى فترة طويلة وحافلة بالعمل الوطنى والإسلامى فى حياة صالح حرب، وذلك من خلال رئاسته لجمعية الشبان المسلمين، ولو تناولها صاحبها فى ذكرياته، لألقت أضواء كثيرة على دوره فى القضايا الوطنية والإسلامية. ففى هذه الفترة استطاع تأدية دوره على المستوى الإسلامى والمستوى الوطنى، فعلى المستوى الإسلامى، صارت الجمعية موئلا للمؤتمرات الإسلامية، ومنبرا يعبر عن الشعور الإسلامى كلما حدث حادث، ومنارا عاما للأمم الإسلامية، ومركزا إسلاميا مهما لإلقاء المحاضرات والقصائد، وأنشأت الجمعية فى عهده مسرحا إسلاميا تمثل عليه الروايات الإسلامية، كما أصبحت ملجأ لكل مسلم مضطهد، حيث ساعدت الجمعية زعماء البلاد العربية والإسلامية المضطهدين بكل الوسائل المتاحة.

أما على المستوى الوطنى، فقد وجد صالح حرب أن مصيبة مصر فى الفرقة والتنازع بين الأحزاب المختلفة، لهذا وجه نداء باسم الجمعية عام ١٩٤١ لجميع القادة والزعماء للاتحاد فى ظل الظروف العصيبة التى كانت تمر بها مصر، وكان حسن البنا أول من لبى هذا النداء ببيان طالب فيه الأحزاب بتأييد دعوة صالح حرب.

ومن ناحية أخرى فقد تصدت الجمعية لمحاولات التبشير، واستطاع صالح حرب أن يجمع الشباب والعمال المصريين فى بوتقة واحدة للكفاح من أجل قضية مصر الأولى، ألا وهى قضية الجلاء ووحدة وادى النيل، وفى هذا الصدد تشير الوثائق البريطانية إلى أن تولى صالح حرب للجمعية قد مكنه من استغلال منصبه فى تدعيم الثورة المعادية للإنجليز(٢٩).

ورغم أن الذكريات فى جملتها سياسية إلا إنها لاتخلو من بعض اللمحات الاجتماعية

التى يمكن ان توضح لنا بعض التقاليد الاجتماعية السائدة فى أوائل القرن العشرين، فعلى سبيل المثال يصف صالح حرب حالة الضباط المصريين أثناء ركوبهم القطار حيث إن هؤلاء الضباط من رتبة (اليوزباشى) فأقل كانوايركبون عربات الدرجة الثانية مع ضباط الصف والأنفار الإنجليز أما الضباط الإنجليز من أصغر الرتب إلى أكبرها فيركبون عربات الدرجة الأولى، وهذه الحالة قد أزعجت صالح حرب واستطاع ان يستصدر أمرا من (على ماهر) رئيس الوزراء يركب جميع الضباط المصريين بموجبه عربات الدرجة الأولى، ونفذت هذه التعليمات وشملت فيما بعد ضباط البوليس. كما يصف الحالة السائدة مع أهل سيوه والذين لم يروا فى حياتهم سيارة تمشى على الأرض وعندما شاهدوا سيارة صالح حرب (ماركة فورد) وأخذ الأهالى يتمسحون فيها ويصفونها بأنها (جنية)، ووصفها البعض (بالبراق). كما يصف فى ذكرياته عادة قبائل أولاد على فى صحراء مصر الغربية حيث كانوا يعتادون تخزين جزء من محصول عامهم من الشعير ليكون تقاوٍ فى العام التالى وهذا المحصول كان التموين الأساسى لقوات السنوسيين والأتراك فى حربهم ضد الإنجليز.

ويمكن القول فى الخاتمة إن هذه الذكريات قد أوضحت الكثير من الحقائق التاريخية وبخاصة فى حركة الجهاد السنوسى ومعارك الصحراء الغربية، ودور صاحب الذكريات فى هذا الجهاد، ورفع العلم المصرى على السلوم، وتفاصيل الثورة التى قادها ضد الإنجليز فى عام ١٩١٥م، ودور قبائل أولاد على الذين انضموا لتلك الثورة وانتقام الإنجليز من مشايخ وعمد هذه القبائل، وتفاصيل المعارك التى قادها صالح حرب فى الصحراء الغربية وكذلك تعد هذه الذكريات مصدرنا الوحيد عن دور صالح حرب فى حركة الجهاد الإسلامى فى الأناضول بقيادة مصطفى كمال.

وفى اعتقادى أن نشر هذه الذكريات يحقق هدفين: الأول توضيح حقائق تاريخية تضيف الجديد إلى تاريخ تلك الفترة، والثانى إبراز الدور الذى قام به صالح حرب فى المجال الوطنى والإسلامى، وهو دور ظل ممتدا حتى وفاته عام ١٩٦٨م.

هوامش الدراسة

١- بدأ نشر الذكريات من يونيه ١٩٥٧ وتوقفت فى ١٩٥٩ فتوالت البرقيات إلى مجلة الشبان المسلمين من القراء فى مصر والعالم الإسلامى تطالب بنشر بقية الحلقات، فعادت فى ١٩٦٥م.

٢- وقد وضعنا تلك العناوين فى الفهرس حتى يسهل الأمر على القارئ، ونشرنا الوثائق والصور فى نهاية الذكريات نظرا لأهميتها التاريخية.

٣- انظر على سبيل المثال وصفه لما كان يجول بخاطره عندما قام بالثورة ضد الإنجليز عام ١٩١٥: «كانت مراجل الغضب تغلى بين جوانحى، ويؤجج الحقد فى قلبى سعيرا، فتمشى الحماسة فى كل شعرة فى جسدى، وتصرخ كل قطرة فى دمى الثورة... الثورة... الثورة فإما الحياة وإما الردى..» ألا كانت الحياة ويرئت مصر منا وأمطرت علينا اللعنات إن رضينا أن نقر الذل فينا ولبست مصر على أيدينا ثوب الخزى والعار».

٤- تتناول الحلقة الثانية على سبيل المثال أحداث الحرب العالمية الثانية ودوره فى وزارة الدفاع بينما تتناول الحلقات التالية أحداث الجهاد فى ليبيا والثورة ضد الإنجليز عام ١٩١٥.

٥- ولهذه الأسباب كانت دراستى لرسالة الدكتوراه بعنوان (محمد صالح حرب ودوره فى القضايا الوطنية والإسلامية) والتى نوقشت فى كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٦م.

٦- تشير وثائق وزارة الخارجية البريطانية إلى أنه ولد عام ١٨٩٩ انظر:

Lampson (cairo) to Eden (F.O) 22 July. 1941. F.O 407/225.

ولكن بالبحث وجد أن هذا التاريخ غير صحيح، بينما أثبتت وثيقة جواز سفره المنشورة فى الذكريات تاريخ ميلاده الحقيقى وهو عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٩م).

٧- مجلة رسالة الإسلام الجديدة ، العدد ٩ (القاهرة: اصدار جمعية الشبان المسلمين، أكتوبر ١٩٨٤) ص٣٠؛ محمود دياب أبطال الكفاح الإسلامى المعاصر) (القاهرة: دار الشعب) ١٩٨٧ ص١١٣.

٨- محمود دياب، مصدر سابق، ص١١٣.

٩- دار الوثائق القومية، محافظ عابدين، محفظة رقم ٥٩٦ (زيارة على ماهر للسودان).

١٠- محمود دياب، مصدر سابق، ص١١٣.

١١- محمد طاهر الجبلاوى، فى صحبة العقاد (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، د.ت) ص٣٣.

١٢- مجلة رسالة الإسلام الجديدة، مرجع سابق، ص٣١.

١٣- تبلورت التيارات الفكرية فى مطلع القرن العشرين فى تيارين تيار الجامعة الإسلامية ويمثله الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد وعبدالعزيز جاويش ويدعو إلى جامعة مصرية إسلامية، ولاينكر الرابطة العثمانية ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الإنجليز، أما التيار الأخر فهو تيار الجامعة المصرية، ويمثله حزب الأمة ممثلا فى لطفى السيد الذى يدعو إلى جامعة مصرية خالصة ولايعترف بالرابطة العثمانية ولا بالجامعة الإسلامية لأنها فى نظره وهم لاسبيل إلى تحقيقه.

١٤- مذكرات أنور باشا، نقلا عن مصطفى على هويدى، الحركة الوطنية فى شرق ليبيا خلال الحرب

العالمية الأولى، (الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى ١٩٨٨) ص٣٠.

١٥- عبد الله عبدالرازق إبراهيم، مصر وحركات التحرر الوطنى فى شمال افريقيا، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦) ص١١٩.

١٦- انظر الذكريات.

١٧- الذكريات.

١٨- الذكريات.

١٩- محمود لبيب، حماة السلوم (القاهرة: دار الانصار، ١٩٨٠) ص٦٢، ٦٣.

٢٠- محمود لبيب، مصدر سابق، ص٦٣.

٢١- انظر المذكرات الخطية للعميد محمود عبدالواحد، «كيفية انضمام قوة مطروح للجيش التركى الليبى»، المنشورة فى :محمود دياب، مصدر سابق فى الفصل الثامن، ص٢٠٢- ٢١٦.

٢٢- مجلة رسالة الإسلام الجديدة، مرجع سابق ص٣١، هنرى أنيس ميخائيل، العلاقات الإنجليزية الليبية مع تحليل للمعاهدة الإنجليزية الليبية (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٠) ص٦٢.

٢٣- انظر الذكريات.

٢٤- حيث يستشهد فى خطبة له بدار الشبان المسلمين حضرها عدد غفير من الشبان المثقفين وشباب البلاد الشرقية الأزهريين وكان العدد يربو على الألف بحال تركيا بعد هزيمة الدولة العثمانية قائلا: «انظروا كيف كانت حال تركيا من اليأس والهزيمة والضعف والخذلان وبالرغم من ذلك فإن مصطفى كمال كان قوى الأيمان وشجاعا صلبا فى الحق وظل على هذا حتى استرد حقوق تركيا» انظر: دار الوثائق القومية، تقارير الأمن العام ١٩٤١، تقرير ٢١٦٢ سرى سياسى، بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٤١.

٢٥- رسالة الإسلام الجديدة، عدد ٩، (اكتوبر ١٩٨٤)، ص٣٠.

٢٦- أحمد البيلى، الصفوة العسكرية والبناء السياسى فى مصر، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٣) ص٢٨١.

٢٧- تحتوى مضابط مجلس النواب المصرى فى الفترة من (يونيه ١٩٢٦- فبراير ١٩٣٠) على العديد من خطب ومقترحات وآراء صالح حرب فى مختلف المواضيع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٢٨- تم وضع خطة من جانب كل من صالح حرب وعزيز المصرى وتم الاتصال بالحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين لإبلاغ الألمان بضرورة تنفيذها والتى كانت تهدف إلى إخراج الإنجليز بالقوة المسلحة من مصر، ولكنها لم تتحقق حيث إن الألمان رأوا تأجيلها ولكنها لم تنفذ. انظر: وجيه عتيق، الملك فاروق وألمانيا النازية خمس سنوات من العلاقة السرية، (القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٩٢) ص٤٩- ٦١.

٢٩- Lampson (cairo) to Eden (F.O) 22 July. 1941, F.O 407/225.

ذكريات

اللواء محمد صالح حرب

١- عندما فقدت مذكراتى

فقدت المذكرات!

ثلاث فترات فى حياتى كتبت مذكراتى عنها وفى كل مرة كنت أفقدها.. وكنت أعتبر فقدها هذا لونا من ألوان سوء الحظ، ولكن ليس عجيبا أن تتعرض مذكرات جندى للضياع وهو المعرض لان يفقد حياته كلها.

كانت مذكراتى الاولى عن الفترة التى بدأت من يوم رقيت ضابطا برتبة ملازم ثان الى أن بلغت رتبة يوزباشى(١)، وصرت قائدا لاساس الهجانة والسواحل والحدود بمرسى مطروح، وتنتهى هذه الفترة فى ليلة ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٥... ليلة أعلنا الثورة على الانجليز(٢)، وفى تلك الليلة ضاعت فى غمار الاحداث مذكراتى الاولى، نسيتها فى سكنى بثكنة مرسى مطروح.. وفى تلك الفترة ذاتها شنت ايطاليا حربها الاستعمارية على ليبيا.

والمرة الثانية!

وللمرة الثانية بدأت أكتب مذكراتى من جديد. بدأتها فى تلك الفترة التى قامت فيها ثورتنا على الانجليز، وعهدت الى زميل لى هو الملازم البطل الشهيد المرحوم ابراهيم عوض الذى عينته ياورا لى بأن يقوم بتحرير جريدة الحرب، فعنى بتنفيذ هذه الرغبة أشد عناية، وحرص كل الحرص على أن لايترك كبيرة ولاصغيرة من أخبارنا وتحركاتنا، فكان يدون

ذلك بدقة كاملة. وكان لشدة حرصة على جريدة الحرب هذه يحملها دائما فى «جرباندية» وهى الحقيبة الخاصة به، والتى لم تكن تفارقه أبدا، لافى النهار ولا فى الليل.. فاذا نام وضعها معه فى الفراش.

وبعد أن حاربنا الانجليز... دخلنا مع الطليان فى مواقع منها موقعة «أورفلة»(٣) وفى تلك الموقعة استشهد البطل ابراهيم عوض(٤).. وذهب مشيعا بحسرات قلبى الذى كان يحبه ويعجب ببطولته.

فقدته، وفقدت معه جريدة الحرب التى كانت سجلا لمذكراتى..

مع الشريف السنوسى

وبدأت أكتب مذكراتى فى فترة ثالثة بدأت عندما وصلت الى استامبول كنت يومئذ القائد العام للجيش السنوسى المكافح للاستعمار الايطالى، ثم جاءتنا دعوة من السلطان وحيد الدين السادس(٥)، جاءت للإمام المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسى بوصفه نائب الخليفة الاعظم فى افريقيا، وجاءتنى بوصفى القائد العام للجيش السنوسى.. وأرسل السلطان غواصة تركية الى ميناء العقيلة حملتنا الى استانبول، وماكدنا نصل حتى تلاحقت الحوادث بسرعة فسلمت بلغاريا التى كانت تحارب فى ذاك الوقت، ولم تجد الدولة العثمانية مناصا من التسليم للحلفاء، فرأى السلطان وحيد الدين أن يغادر السيد السنوسى الآستانة قبل أن يدخلها الحلفاء منتصرين فغادرناها على عجل قبل دخول الحلفاء بثلاثة أيام متجهين الى بروسه فى الأناضول.

وكان الانجليز فى مصر قد استصدروا حكما على بالاعدام، فكان من المستحيل أن أعود الى وطنى الذى كنت أتحرق شوقا اليه.. وفى هذه الفترة بدأت الثورة الكمالية فى تركيا.

مع مصطفى كمال

بعد هزيمة تركيا ودخول الحلفاء استانبول ثارت نفوس فريق من ضباط تركيا الاحرار، وعلى رأسهم مصطفى كمال(٦)، فأعلن الثورة على تلك الاوضاع، وجمع جنوده وأراد أن يحدث انقلابا عسكريا وسعى سعيا حثيثا ليضم اليه السيد أحمد الشريف السنوسى(٧) اذ كان موقفه غاية فى الدقة، وكان فى أشد الحاجة الى الانصار، فأرسل خطابا الى السيد الشريف السنوسى يفيض بالوطنية، وبالغيرة على الاسلام، خطابا لايكتبه الا مسلم

مؤمن شديد الإيمان الى حد التصوف.. ولما آمنا بأهداف الثورة الكمالية انضممنا الى جيش مصطفى كمال منذ بدئها، وظللنا نحارب فى صفوفها حتى تم لها النصر المبين، وتحررت تركيا من سلطانها الضعيف، الذى أصبح فى أخريات أيامه العوبة فى أيدى الانجليز، وحملوه على أن يستصدر من شيخ الاسلام فتوى بأن مصطفى كمال خارج على الدين والدولة مارق على الخليفة وكانت هذه الفتوى من أسباب سعى مصطفى كمال لضم السيد الشريف السنوسى إليه لمكانته الدينية...

وبعد أن تم النصر للغازى مصطفى كمال عدت الى استانبول، والتحقت بكلية أركان الحرب(٨)... ثم جاءتنا أخبار من مصر تقول انه قد صدر عفو من الحكم علينا بالإعدام(٩)، فتركت مذكراتى فى حوزة ضابط طرابلسى صديق وعدت الى مصر فى سنة ١٩٢٤.

ذكريات لا مذكرات

قضيت فى مصر فترة أردت أن أعود بعدها الى تركيا، وإذا بالسلطات المصرية تمنعنى وتحقق معى تحقيقا طويلا يستغرق عدة أسابيع، وفى هذه الفترة توفى الضابط الطرابلسى الذى استودعته مذكراتى.. وعندئذ أدركت أن الاقدار تأبى أن تكون لى مذكرات، فقطعت على نفسى عهدا بأن لا أكتب مذكرات بعدها، وان اكتفى بالاعتماد على الذاكرة كلما أردت أن أستعيد تلك الذكريات وهأنذا أقتبس من ذكريات الشباب ما أبقت عليه الايام، لاقدمه الى شباب مصر الناهضة، عسى أن يجدوا فى عبر الماضى ما ينير لهم طريق المستقبل المشرق الباسم، الذى بدأت مصر تستقبل نوره، ذلك النور الذى أسأل الله أن يتمه على مصر. وعلى أمم الشرق وعلى المسلمين عامة.

تآمر المستعمرين

ولأبدأ الان من سنة ١٩١١، ففى تلك السنة فوجئنا بهجوم ايطالى غادر على ليبيا، وكانت ليبيا تحت حكم الدولة العلية، ولم يكن هناك مايبرر الهجوم عليها اذ لم يكن هناك أى نزاع بين تركيا وايطاليا، ولكنها شهوة الاستعمار التى تملكت ايطاليا، فدفعتها الى أن تحاول استعمار بعض دول الشرق تشبها بانجلترا وفرنسا، فقد كانت ايطاليا تعتبر نفسها يومئذ دولة من الدول الست الكبرى فى العالم.

وكان من الواضح أن هذا العدوان قد تم بعد اتفاق وتآمر بين ايطاليا وانجلترا، أما الدولة العثمانية فكانت فى غفلة عما يدبره المستعمرون، وقد أيدت انجلترا هذا الهجوم

لسبب هام هو إبعاد الدولة العلية عن حدود مصر الغربية، لتحل محلها دولة أوربية تؤمن بمبادئ الاستعمار.

أما فرنسا فقد أقرت الاعتداء لكى تصرف إيطاليا عن التفكير فى مزاحمتها فى تونس التى كانت فيها جالية ايطالية كبرى وكانت مصدر متاعب وقلق لفرنسا.

جواسيس وضباط

كانت الدولة العلية يومئذ فى دور انتقال وعدم استقرار بعد أن أعلن الدستور وعزل السلطان عبد الحميد(١٠)... وكانت ايطاليا تعلم هذا فاجترأت على تركيا، وزاد من جرأتها علمها بأن ليبيا مكشوفة ليست فيها حامية تدافع عنها، والقوة التى كانت فيها سحبت وأرسلت الى جهة أخرى..

وكانت ايطاليا قد أعدت العدة لهذا الزحف من زمن طويل، وظلت تتحين الفرصة لتنفيذه وكان من وسائل هذا الاستعداد أن موظفى بنك روما بفروعه العديدة المنتشرة فى أنحاء طرابلس وبرقه كان أكثرهم من ضباط أركان حرب الجيش الإيطالى، ومن الجواسيس المهرة.

كان ذلك كما قلت فى عام ١٩١١، وقد أعلنت ايطاليا أن زحف أسطولها لانجاز احتلال ليبيا ليس حربا بل هو «نزهة بحرية» وقد آلم الاحرار فى كل مكان أن البابا لم يستنكر هذا العدوان، بل باركه. أما بريطانيا فقد أعلنت أن مصر (وكانت يومئذ ايالة عثمانية) ستكون على الحياد... وبهذا أصبحت تركيا عاجزة عن الدفاع عن ليبيا، بل وعن مجرد الوصول إليها لأن الأسطول الايطالى مسيطر على البحر، ولأن مصر - كما أرادت انجلترا - كانت على الحياد..

ولكن.... هل سكتت مصر .... هل استكانت ليبيا، هل استمتعت ايطاليا بهذه النزهة البحرية؟

٢- حكاية مقتل المجرم ياسين

رأيت أن للفترة الأولى من مذكراتى التى فقدتها حقا فى البقيه الباقية من ذاكرتى.. تلك الفترة فترة الشباب فى فجره المشرق بالطموح والامل، كما انها الفترة التى تعلمت فيها الدروس العملية الاولى من صناعة الجندى وما صناعته الا النضال والقتال واقتحام الاهوال والصبر على الردى والمكاره ما أشرف صناعة الموت الكريم فى سبيل الحياة العزيزة. وما أكرم صناعة الحرب وما الحرب إلا أن تقتل وتقتل فى سبيل الله والوطن الغالى. وهل تعز الاوطان الا اذا رخصت فى حمايتها الدماء؟ وهل تأيد حق «مالم يكن السيف بانيه وحاميه، وهل تأيد حق مالم يحط جانبيه حسام».

ماليس يدفعه المهند مصلتا

لا الكتب تدفعه ولا الاقلام»

تستعصم الاوطان خلف طباته.

وتعز حول قناته الأعلام

نعم هى الحرب، صناعة الجندى وحرفته ومهنته، هى الحرب علم القائد، كنهه وعبقريته، فان أقدم اليها عرف وان أخفق تلف. والفرق بين علم الحرب وفنه وغيره من العلوم والفنون، أن كل علم وكل فن يمكن ان يمهر فيه طالبه فى زمن السلم ويبرز ويتفوق. ويبلغ

فيه مداه إلا علم الحرب وفنه فإن كل امتحان يؤديه فيه طالبه ويبلغ الغاية منه فى حياة السلام قد يذهب جفاء يتبخر هباء عند الامتحان الحقيقى الامتحان الذى يترك تقدير درجاته إلى عزرائيل، والويل للقائد من امتحان عزرائيل فى موقف الهول والردى هنا تتكشف العورات، تفضح الحرب ماستره السلم. فلا حفظ النظريات ولا البراعة فى وضع الخطط، ولا الكفاءة الممتازة فى حل العمليات المعقدة، ولا السيطرة والادارة القادرة على توجيه المناورات تجدى فتيلا اذا انهارت الاعصاب وجفت القلوب وعزت الحياة. عندها ترى العلم والفن العسكرى فى جناحى طائر فيهوى الى الحضيض القائد فيهوى معه جنده.

أرى القلم قد شط بل شطح وبعد كل البعد عن الذكرى او القصة التى أريد ان أقصها من ذكرياتى فلا هى حرب ولاميدان حرب، ولا امتحان قائد فى حرب، انما هى امتحان ابتدائى لضابط لم يمض على تخرجه شهور معدودات، امتحان لقلبه وأعصابه وتفكيره، هى قصة صدام مع الشقى «يسن» فمن هو هذا الشقى يسن؟ يسن عربى من قبيلة العبابدة.

كان يسن هذا أعنف شقى وأجرأ مجرم مشى على أرض مصر فى زمنه، اتخذ القتل حرفه، وازهاق الارواح تسلية، فكان يقتل ليلهو ويلعب ويقتل ليسلب وينهب ويقتل ليطرب كل الطرب، عندما يسمع اسمه يردده الناس فى خوف وفزع وهلع، وكان يقول لبعض اقاربه لماذا لا أكون مثل أبوزيد الهلالى على الربابة. روع هذا الشيطان الرجيم بجرائمه مديريتين مديرية قنا ومديرية اسوان، وأصبح لا حديث للناس الا ما يتوجسونه من بلائه وشره المستطير.. قد يراه بعض من يعرفونه ويراه كثير من عشيرته ولا يجرؤ أحد على الارشاد عنه. يسطو اليوم على مديريه قنا يقتل من يقتل، ثم يفر الى مديرية أسوان وتسمع بعد أيام أنه قتل فيها من قتل ويعود الى سيرته هذه على التوالى بين المديريتين حتى بلغ الخوف من النفوس غايته، واصبح لا يجرؤ أحد على السير منفردا فى الخلاء، بل ولا الجماعة تجرؤ وتخشى ان يكون لها بالمرصاد، وامتنع الناس عن الخروج من منازلهم ليلا فى بعض البلاد فى هاتين المديريتين. وقد ضاقت وزارة الداخلية ذرعا بهذا الشقى وشددت النكير على المديرين القائمين على الامن فى قنا وأسوان، وأمدتهم بقوة اضافية، وصاروا يجردون عليه قوات من الجنود والخفراء بقيادة ضباط يتعقبونه هنا وهناك فكان يخاتل هذه القوات ويقتل منها فينفرط عقدها، ويختل نظامها، وينتهى الأمر بمحاكمة قائد

القوة وهكذا، بلاء واجرام، لاتنقطع سيرته ولاتهدأ ثائرته فى المديريتين. وأخيرا رأت وزارة الداخلية أن تكلف عمدة قبيلة هذا الشقى وهو شيخ محترم هو العمدة على بك وهددته الحكومة بأن تجرده من رتبته ونياشينه اذا هو لم يأت بهذا الشقى حيا أو ميتا.

ظل العمدة الباسل يطارده برجال من قبيلته حتى عثر عليه فى أحد مخابئه وطلب منه ان يستسلم، فقال للعمدة ياسيدى عل بك انت عمدتنا ورئيسنا «ويعز على أن أؤذيك وانت تعلم أنى محكوم على بالاعدام، ولن ترحمنى الحكومة اذا قبضت على فأنا لا أسلم نفسى حيا ابدا، كما أنى لا أموت رخيصا أبدا، فخير لك أن تتركنى، ولماذا تعرض نفسك للأذى فهل أنت أقوى من الحكومة، خل بينى وبينها، وإلا فلا تلوم الا نفسك فى هذه الساعة فاتركنى، فلم يسع العمدة، الا أن يتركه وشأنه ولما جاء مفتش الداخلية الانكليزى ليسأل العمدة عما فعل قال له لم استطع أن أعمل شيئا، وخذوا رتبتكم ونياشينكم اذا شئتم ولست أنا أقوى من الحكومة حتى تكلفونى بما لا أطيق، ها أنا قد علمت أن الشقى فى جهة كذا فى مكان كذا فدونكم فاقبضوا عليه واقتلوه وهيهات أن يبقى يسن فى مكان واحد يومين وظل على حاله بين المديريتين لاينتهى عن منكر ولا ينقطع عن الناس أذاه هذا هو يسن.

وكنت قد انتدبت فى هذه الاثناء من سلاح الهجانة لشراء جمال.. من وادى حلفا وكان معي اليوزباشي حسن إبراهيم وكان مدربا خبيرا وهو من قبيلة النابقة من السودان وكانت الحدود ترسله للسودان ليشتري الهجن نظرا لخبرته في هذه الناحية، وقد أصر علي أن اذهب معه، وبالفعل ذهبنا إلي أسوان ومن هناك إلي حلفا ثم إلي (أبوحمد) في السودان. وهناك انتظرنا البشارية الذين يبيعون الهجين، وعندهم مهارة رائعة في هذا المجال.

وقد اشترينا خمسة وسبعين جملا، وبعد أن اشتريناها عاد البكباشي الانجليزي الذي كان يرافقنا إلي القاهرة بالسكة الحديد وقمت مع اليوزباشي حسن إبراهيم وكان معنا أومباشي، ونفران من الهجانة ودليل طريق قمنا مع الجمال من أبي حمد إلي حلفا وكانت مأموريتي أن نوصل هذه الهجن من حفلا إلي مرسي مطروح سيرا بالبر، ثم نقدم تقريرا في النهاية عن كل جمل من هذه الجمال.

كانت المهمة في الواقع شاقة للغاية خاصة وعدد الجمال كبيرا ولاسيما إذا قيس

بالنسبة للنفرين وأومباشي ودليل طريق واحد لاغير.

ولكن الأوامر هي الأوامر وقد أمكننا أن نعبر الطريق من حلفا إلي البر الغربي.

وعندما بلغنا حلفا وصل تلغراف إلي زميلي اليوزباشي حسن إبراهيم جاء فيه أن زوجته في خطر. وقال لي: «لابد أن أرجع حالا إلي القاهرة حتي أطمئن علي زوجتي» قلت له: وما العمل في هذه الجمال؟ فأجابني بقوله: لاشيء.. تتولي أنت أمرها واني علي ثقة من أنك تملك الكفاءة التي تستطيع أن تتولاها وتتحمل مسئولية أمرها حتي تصل بإذن الله سالمة.

وأحسست بمدي المسئولية الكبيرة التي ألقيت فجأه علي عاتقي فأنا ضابط مازلت في مستهل حياتي العملية، والمهمة شاقة، والطريق وعر. ولكنني اقبلت علي تحمل هذه المسئولية، واستطعت أن اعدي أسوان وهي بالشرق، وعندئذ فكرت كيف أتصرف في مئات الارادب من الأذرة وهي الخاصة بعليق الجمال.. كيف سأنقلها وأين أضعها لتكون في متناول هذه الجمال خلال رحلتنا الشاقة وهداني تفكيري إلي أن أخزن كمية في كل محطة من محطات السكة الحديد علي طول الطريق. ولكن لابد أن أذهب للشرق حتي أستطيع أن أوزع العليقة علي طول المحطات حتي أصل إلي القاهرة وبدأنا في العمل وكان لابد أن نسير بجوار السكة الحديد وعند كوم امبو أحببت أن اري ما إذا كان هناك قطار آت أو قطار علي الطريق وسألت عن ذلك حتي يمكننا أن نجتاز منطقة الخطر ولكنهم قالوا أنه لاويجد الآن قطارات في الطريق.

ويريد «الله السميع العليم أن يأتي قطار بضاعة لم يكن مجيئه مسجلا في الجدول وكانت الجمال تسير بين خطوط السكك الحديدية، وأخذنا نضرب الجمال أنا والاومباشي والنفران والدليل حتي نستطيع أن نبعدها عن الخطوط بأسرع وقت قبل أن يقطعها القطر أربا. وكان قد لاح مقدمه وأخذ يزحف في سرعة نحو هذه الجمال.

واستطعنا أخيرا أن نفرقها ونبعدها بعد مجهود شاق! ولكن كان هناك جمل اسمه «الظافر» كنا قد أخذناه معنا من القاهرة خلال هذه الرحلة لم نستطع أن نبعد هذا الجمل عن الخطوط. أخيرا وقع أمام القطار فدهمه وشطره إلي قطعتين. ثم تعطل القطار.

وكنا قريبين من «سلوا» وهي إحدي البلاد التابعة لأسوان، وهناك نقطة بوليس، وقد تم عمل المحضر اللازم في هذه النقطة، ثم أمضينا ليلتنا في «سلوا» وقلت: ليس المهم ان

نمشي مع السكك الحديدية، نمشي في الصحراء مهما تكبدنا من مشاق أو تحملنا من متاعب، حتي لايتكرر مثل هذا الحادث مرة أخري.. استأنفنا المسير علي بركة الله ولكن في الصحراء هذه المرة.

وكنت أتقدم القافلة ومعى دليل الطريق وهو من قبيلة العبابدة وكان الجنديان على جانبى الجمال والامباشى فى الخلف يسوق القافلة.. وبينما نحن نسير بين جبلين وانا منقبض النفس واذا بالاومباشى يلهب هجينه بالسوط ليصل الى ولما وصل قال «يا افندى.. انا شفت واحد عربى نايم على بطنه وفى يده بندقية فى المغارة هناك وأشار الى مكانها - فما كان من دليل الطريق إلا أن قال «واحنا مالنا ومال عربى نايم على بطنه وماسك بندقية ما ينام على بطنه والا على ظهره فى مغارة ولا فى نار حامية.. وكان الدليل قد أدرك بفطرته البدوية ان هذا الرابض فى مغارة بين الجبل لا بد أن يكون هو الشقى يسن وهذا الشقى عبادى ومن نفس قبيلة الدليل فأراد بكلامه هذا أن يصرفنا عنه ويجنبنا شره وبلاءه.

ولكنى وجدت نفسى مندفعا لان أرى هذا الياسين فأوقفت القافلة.. وجن جنون الدليل لما رأى تصميمى على أن أصل الى مكان يسن خوفا علينا منه وحاول بكل جهده ان يثنينى عن تصميمى فأبيت وتركنا الجمال وعقلناها وتركت معها القوة العسكرية ودليل الطريق وعدت أنا والاومباشى الى حيث المغارة التى رأى فيها الراقد على بطنه وفى يده بندقيته وكنا نسير بحذاء سفح الجبل فلما قربنا من فوهة الغار أشرت للاومباشى بالنزول فنزلنا وسمع الراقد على بطنه وفى يده بندقيته رغاء الجمال واذا به يطلق طلقات سريعة دون أن يرى أحدا ولكنها للتخويف فتأكدت أن الراقد على بطنه وفى يده بندقيته هو الشقى الملعون يسن وأدركت فى هذه اللحظة انه لم يعد فى امكاننا أن نواصل سيرنا دون معركه مع هذا الشقى وعدت الى حيث مبرك الجمال لتدبير الخطة التى على أساسها ستخوض هذه المعركة.. وفجأة دوت طلقات بندقية يس، وتبادلنا إطلاق النار حتى سكت.. وبعد أن خرست بندقيته تركت العسكرى والدليل عند الجمال وأخذت معى الاومباشى والعسكرى الثانى وذهبنا للموقعة وواجهنا فوهة الغار من مسافة ثلاثمائة متر تقريبا وبدأنا نطلق على فوهة الغار بعض الطلقات ونحن خلف نجدات الارض فلم يطلق علينا وكأنه يريدنا أن نتقدم ليكشفنا فتقدمنا زحفا الى نجدة أخرى وإذا بى أسمع بكاء طفل ينبعث من الغار فكان ذلك مفاجأة لنا.. وخشيت أن يصيب رصاص هذا الطفل فأمرت

بايقاف ضرب النار وانسحبنا ولاحظت ان الريح تهب بشدة من الشرق الى الغرب يعنى من موقعنا الى ناحية الغار فخطر لى خاطر على قدر تفكيرى فى تلك السن.. وهو انى رأيت فى طريقنا وقبل أن ندخل هذا الممر بين الجبال مغربيين يسكنان فى اخصاص من البوص وحولهم بوص من سيقان الاذرة - فخطر لى لماذا لا نأتى منها بحمل جمل بوص ونربطه فى حزمة كبيرة ونُدليها من أعلى الجبل بواسطة حبل وحبال الجمال متوفرة عندنا.. ونُدليها الى فم الغار بعد أن نشعل فيها النار وشدة الريح ستدفع بنارها ودخانها الى داخل الغار فيضطر هو ومن معه فى الغار الى الخروج منه والهرب فنستطيع أن نصيبه. خطرت لى الفكرة فتسرعت فى تنفيذها وقصدت الى مبرك الجمال.. وإذا به يطلق علينا طلقتين اصابت احداهما طربوش العسكرى فانبطحنا ولازلنا نزحف حتى وصلنا الى الجمال وقلت لدليل الطريق أن يأخذ جملا ويذهب بأقصى السرعة الى عزبة البوص القريبة يحمل الجمل بوصا ويعود فقال لى ومن أى طريق أذهب قلت له من الطريق التى جئنا فيها قال يعنى أمر على باب الغار وفيه يسن.. وأنا راكب جمل يا حضرة الضابط انا فقير وعندى عيال ومش مستغنى عن عمرى فقلت له الله يخرب بيتك وييتم عيالك.. اصعد انت وامش من فوق الجبل وانا افوت لك الجمل.. وفعلا صعد من فوق الجبل فى خفة المعتاد على تسلقها وركبت انا جملا سريعا ولما اقتربت من فوهة الغار الهبته بالسوط فمرق كالسهم واذا بصوت طلق نارى ظننت انه للارهاب لانى لم اشعر بإصابة ولما ابتعدت عن فوهة الغار نزلت من على الجمل واذا به قد اصيب فى حافة فخذه اليسرى اصابة كشطت جلده وأدمت لحمه.. ولكنه لم يتأثر منها وكان الدليل قد وصل الى الأرض عن طريق الجبل.. فركب الجمل وانطلق مسرعا ليستحضر البوص وعدت انا من طريق الجبل الى مبرك الجمال وفى سرعة خاطفة اعطيت تعليماتى للاومباشى والعسكرى بخصوص البوص واخذا معهما حبلا وصعدا الجبل ونزلا من الجانب الآخر من الغار ووقفت أنا على الجانب الأيمن من الغار..

ولم يمض على هذه الاحداث نصف ساعة وإذا بانسان كأنه غزال فى خفة يخرج من الغار ويندفع كالسهم يريد أن يجتاز الممر الى الجبل المقابل ليهرب (وعلمت فيما بعد أنه ظن أن الهجين الذى مر أمامه وأطلق عليه النار انما ذهب ليستحضر مددا كبيرا من العساكر لمحاصرته.. والقضاء عليه فى هذه المرة.. فأراد ان يفر قبل قدوم هذا المدد فخرج

من الغار فأطلقنا عليه النار لارهابه وكانت تعليماتى ألا نصيبه بل نخوفه ربما يستسلم غير ان هذا الشيطان الشقى لا أمل له فى الحياة اذا استسلم فسيقاوم حتى يفلت أو يقتل وفعلا عندما رأى الرصاص يمر عن يمينه وشماله وفوق رأسه إستعصم بهضبة وانبطح خلفنا واتجه يطلق النار فى سرعة علينا وعلى الجمال ونحن نطاوله ولانريد اصابته واذا بالاومباشى عن يمينى يقول لى أنا أصبت يا أفندى ووضع يده على خاصرته ثم اذا برصاصة تصيب كعب بندقيتى.. اذن الشقى مصمم على قتلنا فقلت للعسكرى اضرب صائب فأطلقت واطلق العسكرى الرصاص على الجزء الظاهر من جسم الشيطان والحمد لله فإن سلاح الهجانة كان فى ذلك الوقت سلاحا بارعا فى التنشين الماهر واصابة الهدف. فإذا بأربع رصاصات فى المليان كما يقول التعبير العسكرى رأينا الشقى يلقى بسلاحه. فجرينا نحوه وآذا به قد انتهى لان احدى الرصاصا كانت فى قلبه والثلاث الاخرى واحدة تحت إبطه وواحدة كسرت ترقوته وثالثة مست ذراعه الايمن.. وفتشناه واذا معه ذخيرة كثيرة وبندقية ذات خمس طلقات يونانية واذا فى دكة لباسه ختم باسمه فتأكدنا عندئذ انه يسن لاشك ولاشبهة.. ولكن شغلنى صوت الطفل الذى سمعته فتوجهنا نحو الغار بعد أن ضمدنا جراح الاومباشى ونادينا اخرج يا من فى الغار فلم يخرج أحد ولم نسمع همسا فقلت للعسكرى أقدح كبريتة لان الغار مظلم وخصوصا لمن يدخل فيه وصرت أبحث والعسكرى يقدح عودا بعد عود من الثقاب وأخيرا اكتشفت ان الغار له جناح على اليسار فدخلته واذا بأمرأة صرخت وتابعها ولد يولول فاخرجناهما واتضح أن المرأة المسكينة زوجة الشقى والولد ابنه ولا حول ولاقوة الا بالله.. ولما علمت الزوجة بقتل زوجها اندفعت تزغرد وتقول فى حماس «بركة لى بركة لى» وحسبت أنها تتصنع الفرح خوفا منا ولكنى علمت أنها جادة لانها كانت تعيش معه فى فزع وخوف وبلاء.. وأجلسنا المرأة وابنها عند مبرك الجمال.. وبعدها عدت إلى الجثة ولست أدرى ماذا أصنع بها ولا أفهم شيئا من الاجراءات القانونية فى هذه الحالة غير أننا استحضرنا جوالا وألقيت فيه الشقى وحزمنا الشوال وربطناه وركبت المرأة وابنها جملا ولكن الى أين؟ لنسلم القتيل فى محطة المحاميد وهى اقرب محطة منا، عدنا مكرهين الى الطريق المكروهة طريق السكة الحديد ولم نمش الا قليلا حتى قابلنا جمعاً غفيراً وفى وسطهم جمل محمل بالبوص فلما أبصرونا وقفوا وتقدم شيخ العزبة القريبة مسلما على ثم قبل ان يسألنى أو يعلم منى شيئا اندفع يقول

الحمد لله على سلامتك يا افندى.. الحمد لله على سلامة شبابك.. الحمد لله اللى ربنا نجاكم من شره هو ده انسان.. ده شيطان.

واصلت السير حتى قربنا من محطة المحاميد واذا بى التقى بمأمور المركز ويسألنى ماذا حصل واين يس؟ وقبل أن أجيبه واصل كلامه قائلا: طبعا هرب ان شاء الله مايكنش قتل واحد منكم ولابهدلكم.. فقلت يا حضرة المأمور وانت كنت فين لما قابلته وعلمت به.. واستمر حضرة المأمور يتكلم ولايترك لى مجالا لأجيب على أسئلته وأخيرا قلت له يا حضرة المأمور يسن قتل.. فما سمع قولى حتى تجهم وجهه وقال مستحيل ده كلام فارغ انت قتلت يسن؟ أبدا أبدا شوف انت قتلت مين؟ قتلت من أظن أنه يسن فقال: لا لا ما أصدقش وطيب انت جاى ليه وما انتظرتش ليه عند الشخص اللى قتلته وتبعث خبر بذلك فقلت له: قد استحضرناه معنا، فقال المأمور استحضرته معك، جبت جثته .. ولما رأى المأمور الشوال قال عال عال ده طرد بضاعة ولا طرد ركاب ولاشوال ذرة. وحملق فى الشوال عندما كان العسكرى يفك رباطه ثم نفضه فسقطت الجثة والمأمور يحملق فيه فما إن رأى الجثة حتى صرخ صرخة عالية (هوه ابن الـ..... هوه ابن الكلب) وكأنه فى حالة غير عادية ولما رجع الى هدوئه قال برافو يا ابنى أهنيك على سلامتك وعلى شجاعتك وانت ريحتنا من هم وشر كبير.

وما اشرقت شمس الصباح حتى بدأت وفود المسئولين تأتى الى محطة المحاميد من قنا واسوان وما انتصف النهار حتى كان مكان الاستراحة يعج بالوافدين من جميع الرتب «والمتفرجين وكان ضمن القادمين وكيل نيابة قنا وآخر من أسوان وتسلم محضر التحقيق وكيل النيابة وبدأ يوجه الى أسئلة فيها عنف وعنت، والحقيقة أنه لما ازدحم المكان برجال الادارة لم أر منهم ترحيبا ولا لطفا فى معاملتى وكأننى أتيت أمرا فيه اساءة اليهم مع أنى كنت أرجو عكس ذلك فلم أعبأ وانطويت على نفسى بعيدا عنهم لولا هذا التحقيق الذى واصله وكيل النيابة وكان من ضمن اسئلته العجيبة لماذا قتلته ولم تقبض عليه حيا؟ لماذا لم تتركه بعد قتله حيث هو وترسل خبرا بالحادثة؟ فقلت له انا لست ضابط بوليس ولا أعرف شيئا عن هذه الاجراءات. وتصرفت بقدر ما وصل اليه تقديرى - سؤال آخر - تقديرك غلط وتصرفك غلط ووضعت نفسك فى مسئولية الحقيقة أنه عند هذا الحد من تحدى وكيل النيابة كنت أنتظر اعترافا بالعمل الجليل فاذا بى أقابل بهذا التنكر، عند ذاك لم أسكت قلت له تقديرى غلط وتصرفى غلط وأنا متحمل كل مسئولية تنتج عن هذا التقدير الغلط والتصرف الغلط ولكنك لن تسمع منى بعد الآن جوابا لاى سؤال. بل ولن أجلس معك مجلس المتهم.. وتركته ونزلت من الدهبية وظل ينادينى فلم التفت اليه وذهبت فى الحال الى محطة المحاميد وأرسلت برقية ثانية وكنت أرسلت

برقية أولى بالحادثة الى مفتش الصحراء الغربية الأميرالاى الالمانى (فون دومريكر بك) ذكرت له فيها ما الاقيه من تحد وعنت فى التحقيق معى فما كان منى إلا أن أبلغ الامر الى اللواء هنير باشا (الجنرال جورج هنير) شقيق الجنرال ارشيولد هنير، فقامت قيامته وقابل مستشار الداخلية وفى الحال أوفد مفتش المديريتين قنا واسوان مستر ونسون فجاءنا فى يوم بقطار الاكسبريس وبمجرد ان وصل محطة المحاميد طلبنى وسلم على سلاما حارا ثم جلسنا معا وطلب منى أن اقص عليه كيف التقينا بيسن وما حصل فقصصت عليه كل ما وقع وفى نهاية الحديث قال لى هل يمكنك أن ترسل معى الدليل وعسكرى لانى أريد أن أشاهد مكان الحادثة فأعطيته جملا ورافقه الدليل وعسكرى وذهب وعاين مكان الحادث ثم عاد بعد ساعتين وأمر باجتماع كل الحاضرين من وكيل مديرية اسوان وحكمدار قنا واسوان ومأمور ادفو وضابط بوليس وبعض الضباط والمشايخ والاهالى وموظفين آخرين فوقف فى وسط هؤلاء جميعا ونادانى ومد يده الى وقال بلغة عربية انكليزية (باسم وزارة الداخلية أشكرك كثير خالص وانت قمت بعمل عظيم خلص مديريتين من مجرم كان خطراً كبيراً على الامن العام ثم التفت الى حكمدار قنا وقال له حضرة الحكمدار ثم التفت الى حكمدار اسوان وقال له حضرة الحكمدار ثم التفت الى الضباط وقال حضرات الضباط. يمكنكم الان ان تناموا كويس وتستريحوا تمام مافيش خطر مافيش خوف هذا الضابط الصغير جدا خلصكم من الخطر والحمد لله مش كده مبروك عليكم والحقيقة آنى كدت انوب خجلا وتألمت كل الالم لهذا التقريع الشنيع لهؤلاء الضباط العظام والصغار وهم سكوت ولم يجرؤ واحد منهم ان يرد بكلمة ثم مد يده الى مرة ثانية وكرر الشكر وقال حضرتك تقدر تسافر الآن.. قلت له: لكن النيابة لا تزال تريد منى أقوالاً مافيش أقوال ومافيش سؤال وجواب خلاص حضرتك تقدم تقرير لسعادة هنيز باشا ونسيت أن أقول ان ثلاثة أطباء حضروا من اسوان وقنا وكشفوا على الجثة بعدها أمر النائب بدفنها بعد أن دون حالتها ومابها من اصابات – ثم تحركت صباح اليوم الثالث فى طريقى الى القاهرة وبعد ان وصلتها وجدت أمامى خطابا من وزارة الداخلية سلمه الى الاميرالاى فون دومريكر خطاب كله ثناء وتمجيد وتقدير وبعد ان اطلعت عليه رددته اليه ليضعه فى ملف خدمتى وصرفت لنا وزارة الداخلية عشرين جنيها مكافأة.

وهكذا قتل يس، وهكذا كانت نهايته ولم تمض غير أيام حتى نظم أحد أبناء الصعيد أغنية فى ذلك لم تلبث حتى رددها الشعب كله من اقصى الصعيد الى شمال الدلتا تلك هى الأغنية:

يا بهية خبرينى

ع اللى جتل يسن

٣- لماذا لم تدخل مصر الحرب العالمية الثانية؟

عندما عينت وزيرا للدفاع فى وزارة على ماهر سنة ١٩٣٩، كان أول ماشغل بالى هو أن أطلع على خطة الدفاع عن حدود مصر الغربية المهددة بهجوم ايطاليا عليها فى حالة ما إذا أعلنت الحرب، فسألت فى الوزارة عن هذه الخطة فلم أعثر على شىء كما لم أجد عنها شيئا فى رياسة أركان الحرب أو فى أى ادارة مصرية، الأمر الذى اضطرنى أن أستدعى الجنرال «ماكريدى»(١١) فلما جاء وسألته عن ذلك قال لى: اننى رئيس البعثة التعليمية ولا شأن لى بالدفاع، ويسأل عن هذا الجنرال ويلسون(١٢).

فاستدعيت الجنرال ويلسون ولما وجهت اليه هذا السؤال أجاب بقوله: الحقيقة انه ليس لدينا خطة كاملة للدفاع عن الحدود الغربية، والقوات البريطانية الموجودة على هذه الحدود قليلة ونحن فى حاجة الى وحدات أخرى كثيرة.

وفهمت منه أن الدفاع عن الحدود غير مستكمل لعناصره التى يمكن ان نطمئن اليها فرأيت من واجبى أن أعرض الامر على رئيس الوزراء وقد قام بدوره بعرض هذه الحالة على الملك السابق واتفق معه على ان يطلع بنفسه على حالة الدفاع عن الحدود الغربية واخطرنا الجنرال ويلسون بهذه الزيارة، وفى اليوم المحدد ذهبنا الى سراى المنتزه: رئيس الوزراء والفريق عزيز المصرى رئيس اركان الجيش فى ذلك الوقت، وأنا...

ضباطنا مع الانفار الانجليز

وعندما ركبنا القطار لاحظت ان جميع الضباط الانجليز من أصغر الرتب الى اكبرها قد ركبوا عربات الدرجة الاولى بينما ركب الضباط المصريون من رتبة يوزباشى فأقل مع ضباط الصف والانفار الانجليز فى عربات الدرجة الثانية. وآلمنى هذا الوضع أشد الإيلام، وطلبت من الدكتور على ماهر ان يقوم معى بالمرور فى عربات القطار وحاول أن يعرف منى السبب ولكنى أخفيته عنه وقد لاحظ بنفسه هذه التفرقة المشينة بين الضباط المصريين والانجليز وغضب لها واتفقت معه على ان يصدر أمرا نافذ المفعول بوصفه حاكما عسكريا، بأن يركب جميع الضباط المصريين عربات الدرجة الأولى وقد كان، ودامت هذه التعليمات وشملت فيما بعد ضباط البوليس.

وكانت الطوافة(١٣) فوزية قد سبقتنا الى مرسى مطروح، وثانى يوم وصولنا الى مرسى مطروح عقدنا فيها اجتماعا بناء على طلبى حضرة رئيس الوزراء والفريق عزيز المصرى وأنا من الجانب المصرى، والجنرال ويلسون والجنرال أوكيز قائد الوحدات المدرعة وقائد المشاة من الجانب البريطانى..

ذكرى قديمة

وبدأت المناقشة بشأن الدفاع عن الحدود الغربية.

فسألت الجنرال ويلسون: هل وجودكم فى مرسى مطروح ضرورى للدفاع؟

فقال: نعم.. ولا يمكن الاستغناء عن هذا الميناء، فقلت له نفهم ان جناحكم الايمن يرتكز على البحر فما الذى يحمى جناحكم الايسر؟

فقال: القوات المدرعة

قلت: الا ترى ان هذا الجناح يكون مهددا فى حالة ما اذا احتل العدو واحة سيوة.

وبعد مناقشة على موقع سيوة على الخريطة التى استحضرها معه الجنرال ويلسون قال: أنا مقتنع الآن بأهمية سيوة ولكنى أريد أن أراها على الطبيعة، فاتفقنا على ان نجتمع فى واحة سيوة بعد أسبوع من عودتنا مع الملك السابق الى القاهرة. وفعلا عدت انا الى مرسى مطروح وقمت منها بالسيارات وبرفقتى اللواء حسن حسنى الزيدى مفتش الجيش والاميرالاى على شاهين محافظ الصحراء الغربية والاميرالاى على موسى من سلاح الحدود والصاغ عبد الحميد غالب «اللواء عبدالحميد سفير مصر الان فى لبنان»

وكان مدير المكتب العسكرى لوزير الحربية.

تحركنا بالسيارات ومررنا على الحدود التي بين مصر وليبيا الى ان وصلنا الى الملقة ومنها الى سيوة وثانى يوم من وصولنا اليها حضر بالطائرة الجنرال ويلسون و معه بعض ضباط أركان حرب الجيش الانكليزى وقضينا فى سيوة يومين مررنا فيهما على جميع مداخلها «النقوب» أى الدروب والآبار والمواقع الطبيعية الضعيفة منها والقوية ولم نترك ناحية تستحق المعاينة الا مررنا عليها وأخيرا رأينا أن نمر على الطريق الداخلى بين الحطايا(١٤) الموصل من جغبوب الى سيوة، وساقنا ذلك الى المرور على حطية قربة الواقعة فى الشمال الغربى من سيوة على بعد ١٧ كيلو مترا ولاحظ الجنرال ويلسون وجود سيفين متقاطعين على الخريطة عند هذه الحطية اشارة الى وقوع معركة فى هذه المنطقة فالتفت الى مبتسما وقد تذكر ان فى هذا المكان نشبت بينى وبين الانكليز اكبر معركة على الحدود الجنوبية الغربية قبل مغادرتنا حدود مصر الى جغبوب وكان ذلك فى سنة ١٩١٧ وسيأتى ذكر هذه الموقعة مفصلا عند سرد بقية ذكرياتى.

الخطة مع جندى

وبعد انتهائنا من هذ المعاينات كلها أبدى الجنرال ويلسون انه مقتنع تمام الاقتناع أن سيوة يجب أن تعد للدفاع عن الجنوب ثم قال: ولكن لى ملاحظات أريد رأيك فيها.

أولا: الطريق الوحيد الموصل اليها هو طريق مواز للجبهة من مرسى مطروح الى سيوة وهو بذلك غير صالح لا للامداد ولا للانسحاب فقلت له ان هناك طرقا اخرى يمكن استخدامها، والاستفادة منها عامودية على الجبهة: «١» من الضبعة الى سيوة. «٢» من النوبارية أو وادى النطرون الى سيوة «٣» من الفيوم الى الواحات البحرية الى سيوة.

ثانيا: أريد أن يكون لنا قوة احتياطية فى الزيتون قريبة من النقب وليس هناك ماء.

فأجبت: ما أسهل أن نفجر آبارا فى هذه المنطقة تعطى الماء الكافى لأى قوة.

ثالثا: يلزمنا مخازن فى بعض الطرق الموصلة الى سيوة.

فأجبت: سننشئ أى عدد تريده من المخازن فى أى من الطرق التى ذكرتها.

عند هذا قال الجنرال ويلسون: «ليس عندى بعد هذا ما أقوله، وقد أدركت تمام الادراك أهمية سيوة، ولهذا بمجرد أن أعود الى القاهرة سنضع خطة الدفاع عنها واقدمها لكم لتقولوا رأيكم فيها ثم نضعها موضع التنفيذ» وفعلا بمجرد أن عاد، عمل على انجاز وضع

الخطة فى خلال سبعة عشر يوما وبعثها الى وزارة الحربية مع أحد جنود القيادة العامة «وكان يجب أن يحملها ضابط مسئول» فاطلعت عليها واستدعيت رئيس اركان حرب الجيش الفريق عزيز المصرى وسلمته الخطة بنفسى وطلبت منه ان يدرسها ويضع ملاحظاته عليها وفعلا أخذها وبعد أيام جاءنى بها وعليها ملاحظاته وتناقشنا معا فى بعض هذه الملاحظات، استدعيت الجنرال ويلسون وأطلعته على رأينا فى الخطة ووفقنا بين هذه الآراء وشرعنا فى التنفيذ وأودعت الخطة فى خزانتى فى وزارة الدفاع.

وهذه الخطة هى التى زعم الانجليز فيما زعموا انها وصلت الى أيدى الطليان. وضبطت فى جيب أحد الأسرى من قوادهم واتهمونى كما اتهموا الدكتور على ماهر والفريق عزيز المصرى فى ذلك، وان تعجب فاعجب لهذا الاتهام العجيب! هذه الخطة انا الذى اقترحتها ورافقت الجنرال ويلسون واشتركت فى وضعها، وكان الانكليز غافلين عنها. فما معنى أن نحرص على حماية هذا القطاع من أرضنا ليكون واقيا من هجوم كبير على صعيد مصر، ثم نقدمها متطوعين الى عدو نريد أن نحمى بلادنا من عدوانه؟ ولكن أراد الانجليز ذريعة يبررون بها ما تجنوا به على الدكتور على ماهر وطلبهم اقالته بدعوى انه لم يكن أمينا على تنفيذ المعاهدة، وانهم لايطمئنون على بقائه فى الحكم، ولكن خاب فألهم ولم يفدهم هذا التجنى عندما صدمناهم أثناء التحقيق بهذه الحقائق ولم يجد ويلسون ولا غيره ما يؤيد اتهامهم وباءوا بخزيهم وافترائهم واستقالت، وزارة على ماهر بعد أن أتمت تنفيذ كل ما طلبه ويلسون لاعداد خطة الدفاع عن سيوة، ولكن عجز الانكليز عن شغلها بالقوة اللازمة وأشفقوا على جنودهم من الحياة فى سيوة وبقيت بلا حامية فهاجمها الطليان من جغبوب واحتلوها، ولو ان هؤلاء الطليان كانت لديهم الشجاعة الكافية وكانوا يقوون على حرب الصحراء وواصلوا تقدمهم من سيوة لخلقوا للانكليز ارتباكا فى خطة دفاعهم لاقبل لهم به وارغموهم على فتح جبهات بدلا من جبهة واحدة فى العلمين ولكن الخوف الشديد الذى تملك هذه الجيوش الغربية من الصحراء جعل الطليان ينكمشون فى سيوة، وأضاع عليهم فرصا كانت رحمة لمصر، ومثل هذا الخطأ أو الخوف من حرب الصحراء هو الذى أضاع على نورى(١٥) «شقيق أنور باشا» وجعفر العسكرى ماكان يمكن احرازه من نصر ضد الانكليز سنة ١٩١٦ مما سأذكر تفصيله إذا أتيح لذكرياتى أن تنشر فى مناسبة اخرى.

ثمن دخولنا الحرب

ولما ألح السفير البريطانى(١٦) فى طلب دخول مصر الحرب اشترط الدكتور ماهر فيما اشترط الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ وعقد معاهدة أخرى تشمل الجلاء عن مصر والسودان، وأن تكون معاهدة الند للند.. بين دولتين مستقلتين فرفض السفير البريطانى هذا الطلب ورفضت الوزارة وقررت بالاجماع ألا تدخل مصر الحرب إلا اذا هوجم جيشنا وهوجمت مدننا أو توغلوا فى أراضينا دون استفزاز.

وقابلنى ويلسون بعد ذلك وسألنى عن سبب تمسك الحكومة بعدم إعلان الحرب فقلت له: هل المعاهدة التى بيننا وبينكم تلزمنا بإعلان الحرب؟

فقال: لا

قلت: فلماذا إذن تطالبوننا بإعلان الحرب؟

قال: للصداقة التى بيننا وبينكم.

قلت: هل الصداقة تلزم مصر ولاتلزمكم؟ فلماذا لاتوافقون على الجلاء عن مصر وعن السودان جلاء تاما بمعاهدة حديثة تحل مكان معاهدة سنة ١٩٣٦؟

ماذا أقول للضابط او الجندى المصرى الذى أسوقه الى الميدان ليموت؟ وهل أقول له ضح بحياتك من أجل الامبراطورية البريطانية؟ وهل تعتقد انه يقبل هذه التضحية؟ أما إذا قلت له: انك ستضحى من اجل بلادك وحريتها فإنه لن يتردد عن ذلك بأى حال.

وهنا أجابنى ويلسون على الفور: عندك حق...

ولكن الانجليز ظلوا يضعون العراقيل فى طريق الوزارة ويخلقون لها المتاعب وطلبوا منا طلبات كثيرة بغية احراج مركز الوزارة وارغامها على العدول عن موقفها، من ذلك أن تأمر بتفتيش السفارة الايطالية والالمانية والقاء القبض على بعض رجالهما ومنهم السفراء أنفسهم كما طلبوا اعتقال الجاليات الالمانية والايطالية فى مصر.

ورد الدكتور على ماهر على هذا الطلب قائلا: ان مصر لو فعلت فسوف يعامل المصريون فى هاتين الدولتين نفس المعاملة كما ان بريطانيا نفسها لم تلق القبض على سفرائهما ولا رجالهما الدبلوماسيين فيها بل سمحت لهم بمغادرة بلادها كما تقضى بذلك التقاليد الدبلوماسية.

وطلبوا ايضا القاء القبض على بعض موظفى القصر من الطليان وغير ذلك من الطلبات

غير المعقولة ورفضت الوزارة بطبيعة الحال أن ترضخ لهذه الطلبات.

وتبين لنا ان قرار الوزارة بمنع دخول مصر الحرب قد أغضب الانجليز اشد الغضب وجعلهم يتوقون الى الخلاص من الوزارة الماهرية فى أسرع وقت ممكن. وغضبت الحكومة الانجليزية وأرسل وزير خارجيتها «هاليفاكس» برقية الى الملك السابق(١٧) يطلب فيها اقالة وزارة على ماهر لانه لاينفذ المعاهدة بأمانة ولايحوز ثقة البلاد «وكنت أود أن ينشر الدكتور على ماهر ولو هذا الجزء من مذكراته لأنه كان وزيرا للخارجية أيضا فى ذلك الوقت لأن فيها تفصيلا أوسع وبيانا أدق لما حدث بينه وبين السفير البريطانى ليعرف الشعب كيف صمدت مصر أمام الانجليز لتتجنب ويلات الحرب».

اجتمعنا فى الظلام!

ودعا الملك السابق الأقطاب من رؤساء الوزارات السابقين ورؤساء الهيئات النيابية ورؤساء الاحزاب للاجتماع فى قصر عابدين ودعيت وحدى من الوزراء مع رئيس الوزراء بوصفى وزيرا للحربية ولما اكتمل عقد المجتمعين حضر الملك السابق وقال لنا:

لقد جاءتنى برقية من الحكومة الانجليزية تقول فيها: أن على ماهر لاينفذ المعاهدة بامانة وانه غير حائز لثقة البلاد وانها لذلك تطلب اقالته وقد أرسلت برقية الى ملك بريطانيا أفند فيها ماجاء فى برقية حكومته وأؤكد سلامة موقف على ماهر.

وأضاف الملك السابق قائلا: وبعد يومين جاءنى الرد من ملك بريطانيا يقول فيه بأننى تكلمت مع رئيس حكومتى وان حكومتى مصرة على موقفها وبما انى ملك دستورى فلا أملك أكثر من ذلك، ثم أضاف الملك السابق قائلا: «وإنى أترك لكم الامر لتقولوا رأيكم فيه» ثم تركنا وانصرف وكان الاستاذ عبدالوهاب طلعت سكرتيرا لهذا الاجتماع.

وهنا بدأت المناقشة وسؤال الدكتور على ماهر عن أسباب التوتر بينه وبين الانجليز فاعترضت السائل قائلا: ان هذا السؤال يجب أن يسبقه سؤال آخر وهو: هل هذا المجلس الموقر يرضى أن تتدخل بريطانيا فى شئوننا الداخلية إلى حد طلب اقالة وزارة؟

فرد أحد المجتمعين قائلا: إننا فى حالة حرب. وقال أحمد زيور «باشا» - الملك كشف نفسه.. الملك كشف نفسه!.

وجرت المناقشة بعد ذلك وظهر مع الأسف من البعض ما لايتفق وصيانة كرامة البلاد فى موقفها ورفض تدخل الانجليز.

وفي أثناء ذلك حدثت غارة جوية وأطفئت انوار القصر.. فغادرت قاعة الاجتماع أتحسس طريقي في الظلام باحثا عن تليفون لأعرف أنباء هذه الغارة بوصفي وزيرا للحربية، وبينما أنا أغادر القاعة أحسست بيد تمسك بيدي وسمعت صوتا يقول لي: هنا التليفون، وقادني صاحب الصوت الى غرفة أخرى داخلية مضاءة وكان هذا الشخص هو الملك السابق وقد كان ينصت خارج القاعة إلى كل مايدور في قاعة الاجتماع من مناقشات.. والتفت الى قائلا: «هل تظن ان عندي رجال. هو انا عندي رجال؟» ولعل هذه العقيدة التي كانت تستولي على الملك السابق من انه ليس بمصر رجال، من أهم العوامل التي جرفته حتى صدم بالحقيقة عندما ثبت له أن في مصر رجالا وان هؤلاء الرجال لهم من الشجاعة والجرأة ماجعلهم يطيحون بعرشه وان يرغموا الانجليز على الرضوخ لما لم يستطع هو أن يرغمهم على أقل منه.. وانتهى المجلس بأن كتب للملك انه يؤكد دستورية وزارة على ماهر وأنها حائزة لثقة البلاد ونفذت المعاهدة ولكن ازاء اصرار على ماهر على الاستقالة لايرى المجلس إلا ان يوصى بقبول هذه الاستقالة.

واعطى هذا القرار الى الاستاذ عبدالوهاب طلعت ليوصله الى الملك وهنا قال له أحد المجتمعين: قل للملك أن هذه الاستقالة يجب ان تقبل فقال له كيف استطيع أن أقول للمك يجب أن تقبل؟ وجاءت بعد ذلك وزارة حسن صبري(١٨) ثم وزارة حسين سري(١٩) وتطورت الامور من سيء الى أسوأ والانجليز يصرون على وزارة يرضون عنها وحدث ما حدث في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢(٢٠).

وكنت أتوقع ان تغمر البلاد في اليوم التالي المظاهرات الصاخبة احتجاجا على هذا التدخل البريطاني الجارح لكرامة البلاد ولكن حدث مع الاسف أن الذين وكل إليهم الأمر استطاعوا أن يسكتوا كل صوت في البلاد.. فدعوت أعضاء مجلس ادارة جمعية الشبان المسلمين(٢١) وشرحت لهم الموقف وتم الاتفاق على ان أقدم باسم الجمعية احتجاجا شديدا الى السفارة البريطانية وحملت هذا الاحتجاج وذهبت به الى السفارة وقدمته الى (السير سمارت) السكرتير الشرقي في ذلك الوقت فما كاد يعلم فحواه حتى قال لي في تهكم: أهو اعلان الحرب؟.

فقلت له بنفس الطريقة: لو أستطيع أن أعلنها لما ترددت. وانت تعرف.

واتصلت ببعض الضباط الشبان والشباب وشرحت لهم الموقف وما يتطلبه من وجوب اعلان سخطهم على هذا الاعتداء حتى يدرك الانجليز أن مصر لاتصبر على هذه الاهانة التى لحقت بكل مصرى وبدأت وفود الشباب تتقاطر على القصر معلنة احتجاجها على تدخل الانجليز..

يطلبون نفيى

وغضب الانجليز لموقفى هذا وطلبوا نفيى الى سيشل او جنوب افريقيا ولكن الحكومة اكتفت بإبعادى الى أسوان كما طلبوا من الحكومات المتعاقبة أن أستقيل من رياسة جمعية الشبان المسلمين فرفضت ذلك بشدة وأفهمتهم أن هذه الرياسة بيعة فى عنقى لاينزعها إلا الشبان المسلمون أنفسهم.. وعلقوا عودتى من أسوان على أن أستقيل فرفضت ذلك أيضا وبقيت مبعدا فى أسوان من سنة ١٩٤٢ الى سنة ١٩٤٥ واعتقل الدكتور على ماهر كذلك تارة فى الشمال وتارة أخرى فى الجنوب، ولقى مالقى، ووددت مخلصا إن ماحصل للدكتور على ماهر لم يحصل حفاظا لكرامة الطرفين المصريين فى التاريخ.

٤- الموقف على حدود مصر الغربية أثناء الحرب العالمية الأولى

أريد أن يعلم قارئ هذه الذكريات بما كانت عليه حدود مصر الغربية عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى، وفى الوقت الذى كانت لاتزال فيه ليبيا التى تخلت عنها الدولة العثمانية بعد عقدها الصلح مع ايطاليا، كانت ليبيا المجاهدة بحق، وصدق، تحارب ايطاليا وحدها، بلا سند، ولا مدد، إلا إيمانها بربها، وتفانيها فى سبيل وطنها، وحماية عروبتها. من دخيل فاجر، أراد الاستعمار فظنه سهلا هينا، واظهار بطولة حسب كسبها رخيصا، ليثبت انه أهل لأن يكون إحدى الدول الست الكبرى فى ذلك التاريخ فخاب أمله، وفشل رجاؤه سنين طويلة، سجلت فيها ليبيا نصرا على قواته وسامته الخزى والعار، ولو وجدت ليبيا فى ذلك الوقت من المدد ما يساعدها على جهادها لقذفت بإيطاليا الى البحر، والى غير رجعة.

ولكن الدولة العثمانية قبضت يدها عن كل معاونة نزولا على شروط الصلح التى بينها وبين ايطاليا كما أوقف الهلال الاحمر المصرى مساعدته، وهو الذى قام بالكثير وفوق الكثير للشقيقة العزيزة والجارة الباسلة الكريمة ليبيا، وامتنع كذلك المسلمون فى مصر وغير مصر عن تقديم أى عون، واعتقد الجميع أن لا أمل فى نصر تحرزه ليبيا ولا هزيمة إيطاليا بعد أن انسحبت الدولة العثمانية من الميدان.

وكان وقع هذا الموقف السلبى من الجميع على ليبيا شديدا، وشديدا جدا، إذ حرمها كل ما كانت ترجوه من المسلمين وهى بلد لايملك شيئا وليس له موارد من أى نوع تعينه على استمرار الجهاد، ومع هذا الضيق المحيط ببرقة من جميع نواحيها، أبت ليبيا المسلمة المؤمنة، والعربية الباسلة، أن تجعل لليأس سلطانا عليها، وفضلت أن تموت كريمة كما عاشت كريمة، وأبت أن تسلم أو تستسلم، وكان المجاهدون يعيشون على الطوى أياما كثيرة، ويحاربون العدو بما يغنمونه من سلاحه وذخيرته ومؤونته.

فى هذا الهول وتحت ضغط هذا الحرمان والحرب المستعرة الأوار رأى السيد الإمام المجاهد وقائد المؤمنين السيد أحمد الشريف السنوسى رضى الله عنه وأرضاه أن ينقل معسكره قريبا من الحدود المصرية ليسهل عليه الاتصال المباشر بمصر الشقيقة الكريمة، وبالهلال الاحمر(٢٢) فنزل فى مسيعط وأبدل اسمها وأسماها (مساعد) وبدأت مفاوضاته واتصالاته ورسله وكتبه الى مصر يشرح فيها حال المجاهدين، وما وصلوا اليه، ويطلب العون والمدد السريع.

فى هذه الاثناء نشبت الحرب العالمية الاولى، ودخلت فيها الدولة العثمانية الى جانب المانيا ضد انجلترا وفرنسا ومن معهما، وما لبثت ايطاليا أن نقضت تحالفها مع النمسا، وانضمت الى الحلفاء، عند ذلك كتب السيد الامام أحمد الشريف السنوسى الى أنور باشا وكان أنور فى هذه الحقبة رجل الدولة العثمانية الأول بمؤازرة المانيا له، وأصبح وزيرا للحربية ونائبا عن القائد العام (السلطان) وصاحب النفوذ الذى يملك أن يغنى ويفقر، ونشأت بين السيد الامام السنوسى وأنور باشا صداقة متينة عندما كان فى برقة ثم تركها بمناسبة حرب البلقان وتأزم الحالة فى استامبول.

كتب السيد الامام الى أنور باشا يطلب العون والمدد الكافى وانه مستعد لان ينضم الى دولة الخلافة فى حربها ضد المستعمرين للمسلمين. فما إن وصل كتاب السيد احمد الشريف الى أنور باشا حتى انتهز الفرصة وبادر بارسال أخيه (نورى) فى غواصة المانية، ثم جعفر العسكرى - رئيس وزراء العراق فيما بعد - وغيرهما من الضباط العثمانيين «نديم، وغالب، وأمين، ونهاد عبدالقادر، وفوزى وضياء» وبعض ضباط الصف والعساكر، المتخلفين فى استامبول من الليبيين الذين سبق أن أرسلهم أنور عندما كان فى برقة لتدريبهم تدريبا عسكريا

يجعل منهم ضباطا احتياطين وضباط صف فنيين. جاء كل هؤلاء إلى معسكر السيد الإمام فى مساعد بعضهم فى غواصات ألمانية وبعضهم فى مراكب شراعية استطاعت أن تفلت من رقابة أساطيل الحلفاء فى البحر الأبيض وتكون من هؤلاء جيش نظامى مدرب تدريبا حديثا وبدأوا فى تدريب المجاهدين فى جهة «بير واعر» غرب مساعد واطلقوا على بعض الكتائب أسماء «برنجى نمونه، ايكنجى نمونه، طابور بير واعر، الخ».

استعداد هزيل

وكان الهدف الاستراتيجى المطلوب من هذه القوة التى تشكلت فى برقة القيام به، هو مهاجمة الانجليز من حدود مصر الغربية حتى يضطروا الى الحرب فى جبهتين عندمها يهاجم الجيش العثمانى الانجليز فى قنال السويس وعند ذاك تثور مصر كلها وتكون نهاية الاحتلال والخلاص منه.

كانت هذه هى الخطة التى وضعت فى استامبول وجاء هؤلاء الضباط لتنفيذها، ولكن واسفاه فإن هذه الخطة الضخمة كان بقدر ضخامتها العكس فى الاستعداد لها فان الاستعداد لها كان هزيلا الى درجة لا يتصورها عقل وكان الموفدون للقيادة وتنفيذ هذه الخطة دون المستوى الذى تتطلبه هذه العمليات وإن كانت بسالتهم الشخصية وشجاعتهم واقدامهم فوق كل تقدير ولكن قيادتهم كان ينقصها الكثير مما تتطلبه حرب الصحراء.

بدأ نورى فور وصوله الى المعسكر السنوسى بجهة مساعد، يساعده جعفر العسكرى، والضباط الذين قدموا من استامبول بدأوا بتدريب المجاهدين السنوسيين ولو أنهم جميعاًكان قد سبق لهم التدريب بل الاشتراك الفعلى فى مواقع كثيرة مع إيطاليا وتمرسوا على القتال. بدأ نورى وجعفر بتشكيل الوحدات الخاصة التى أطلقوا عليها الاسماء التى ذكرتها وخصوا هذه الكتائب بعناية خاصة فى مأكلها وكسائها وتسليحها وغير ذلك. وعينوا اليوزباشى أمين قائدا للكتيبة الاولى واليوزباشى غالب قائدا للثانية واليوزباشى نديم قائدا لكتيبة بير واعر وكانت قيادة الاسلحة الميكانيكية أيضا بقيادة الضباط العثمانيين مثل المدفعية ومدافع الماكينة، يعاونهم كثير من ضباط الصف والأنفار الأتراك (هؤلاء جميعا يحملون قنابل يدوية) أما بقية القوات السنوسية فكانت تتشكل من كتائب القبائل بمعنى ان لكل قبيلة كتيبة من مجاهديها. العواقر – الحاسة – البراعصة – العبيدات – العبيد – المنفة – وغيرهم خلاف حرس السيد الامام المكون من حفظة القرآن الكريم وعددهم لايقل عن ثلاثمائة وثلاثة عشر حافظا. (كقوة

المهاجرين والانصار فى غزوة بدر الكبرى).

وكانت هناك كتيبة أخرى من السودان الغربى وكان مجموع هذا الجيش السنوسى نحو فرقة من اثنى عشر ألف مقاتل لا يزيد تسليحهم على بندقية المشاة، بل كان السلاح من أنواع مختلفة ويستتبع هذا اختلاف فى انواع الذخيرة وعدد الطلقات التى يحملها كل جندى فبينما يحمل بعضهم مائة طلقة، نجد آخرين لايحملون أكثر من ثلاثين وليس لديهم أى استعداد فى خدماتهم الخلفية فلا قسم طبى، ولاتموين، ولا احتياطى للذخيرة، ولا وسائل للمواصلات غير جمال الحمل التى تمشى الهوينى و لا تركض، وعدد محدود من الخيال لبعض الضباط ورغما من هذا النقص الفاضح فى كل شىء فأنه لم يمض أكثر من أربعة شهور على وصول الضباط العثمانيين الى معسكر السنوسى حتى بدأ نورى وجعفر يطلبان فى الحاح من السيد الامام أحمد الشريف السنوسى أن يعجل بحركة هجوم على الانجليز فى حدود مصر الغربية.

حركة مذبوحة

ولكن المجاهد الكبير والعليم الخبير بالحرب وما تتطلبه من استعداد، كان يرفض طلبهما ويقول فى منطق عسكرى «أين استعدادكم واين قوتكم التى تريدون أن تهاجموا بها الانجليز؟ تريدون منى أن أحارب دولتين عظيمتين إحداهما خلفى وهى ايطاليا والثانية أمامى وهى انجلترا بهذا الجيش المجرد من كل استعداد وفوق هذا فأنتم تعلمون علم اليقين أن تموينا الان متوقف ومعتمد على ما يسمح به الانجليز فى السلوم من مؤن وسلع تأتى بها طوافات مصر من الاسكندرية وبالرغم من انضمام ايطاليا فى الحرب معهم فقد اشترطوا عليها ألا يمنعوا تموينا وأن يستمر كما كان من قبل وقد وفوا الى اليوم بذلك، وأنا عندما كتبت إلى صديقى أنور باشا انى مستعد للانضمام الى دولة الخلافة لمحاربة المستعمرين اشترطت أن تمدنى الدولة العلية بالامداد الكافى الذى يتطلبه الموقف فى محاربة الدولتين ولكنى أقول والاسف يملأ قلبى انكم منذ وصلتم لم يصلنا من العون والمدد ما يستحق أن يذكر، بل انتم تعتمدون فى تموينكم الشخصى على السلوم، فأين المخازن التى امتلأت بالمؤن فى حالة ما إذا أقفل الانجليز باب الاسكندرية، وأين الاسلحة الموحدة الصالحة للقتال، وأين الذخائر الكافية، وأين وأين؟ لا شىء، فهل المقصود ان نقوم بحركة مذبوحة أقدم فيها المجاهدين الى الفناء، ونمكن إيطاليا من الاستيلاء على برقة دون

أن تفيد مصر أى فائدة من حركتنا، وأنا الحريص على أن أقوم بكل تضحية إذا كانت نتيجة مساهمتنا تخليص مصر من الاحتلال الانجليزى، أما الهجوم الصورى الذى لا يأتى الا بالهزيمة المحققة فأنا لايمكن أن أوافق عليه، أكتبوا لاستامبول وأنا سأكتب لصديقى أنور باشا أيضا بهذا وأكرر استعدادى لأن أحارب الابيض والاسود فى كل جهة، اذا توفر لدينا بعض الاستعداد وشىء من الامل فى نجاح حركتنا ضد أعدائنا».

وبالرغم من أنه لم يأت أى مدد من أى نوع من الدولة العثمانية لأنها كانت هى نفسها فى حالة لاتحسد عليها، وكان الهجوم على الدردنيل(٢٣)، فلم تقدم أى مدد جدى من أى نوع لجيش الامام السنوسى، بالرغم من ذلك فقد ظل نورى وجعفر لايكفان عن الالحاح على السيد الامام بالقيام بهجوم ضد الانجليز رغم علمهما علم اليقين أن هذا الهجوم لن يكون الا حركة مذبوحة، ولن يكتب لها أى نجاح ولكنهما توهما أن الانجليز فى شغل شاغل فى ميادين أهم وأخطر فلن يعززوا قوة لها خطرها لمواجهة الهجوم من برقة، وعزز هذا الوهم فى نفسيهما ما يرونه من تملق الاميرالاى اسنويك(٢٤) مفتش الحدود الغربية والمقيم فى السلوم، تملقه وسعيه المتواصل لارضاء السيد الامام، وقدوم وفود من مصر لها اتصال روحى واخاء فى الله مع السيد الامام السنوسى هذه الوفود مكلفة من قبل الانجليز، بإقناع السيد الامام بخطورة موقفه إذا هو انحاز واذعن لاغراء الاتراك وقام بأى حركة ضد الانجليز ولتذكيره بالصداقة التقليدية القديمة بين آبائه والامبراطورية الانجليزية وان انجلترا ما كانت فى يوم من الايام عدوة لهذه الدعوة الرشيدة المسلمة، وانها لزمت جانب الحياد فى حرب ايطاليا، كما انها لم توافق ايطاليا على قفل باب التموين من مصر إلى المجاهدين السنوسيين رغما عن انضمام ايطاليا الى الحلفاء.

تقدير خاطئ:

فسر نورى وجعفر هذه المعاملة بانها من الانجليز ضعف بلغ غايته حتى انحدروا الى هذا الدرك من التملق والخضوع.. فلماذا يتردد السيد السنوسى فى هجومه عليهم والله يعلم ان السيد الامام لايهمه تملق الانجليز له ولكن الذى يهمه أن يطمئن على استعداد جيشه للهجوم وهو أعلم بتقدير الموقف من حضرات السادة الذين يتولون القيادة والذين كان من آمالهم المبنية على الخطأ البالغ فى التقدير أن فى استطاعتهم أن يحرزوا نصرا رخيصا وان يستغل الجيش العثمانى القادم من الشرق فى دخول مصر، ذلك الجيش الذى

كان معلوما انه سيكون تحت قيادة الخديو(٢٥) حتى يحفز المصريين على الثورة ولكن الاتراك أبعدوا الخديو عن هذه القيادة، وقد سمعت من الخديوى شخصيا عندما التقينا فى استامبول سنة ١٩١٨ وسألته لماذا لم يكن على رأس القوة التى قدمت لمهاجمة الانجليز فى القنال فقال لى فى شرح طويل الأسباب التى أدت الى ابعاده بعد أن بعث معيته الى حلب ومكثت بها خمسة عشر يوما، وكان على وشك القيام من استامبول ليلحق بها ويقوم الى دمشق فإذا بمعيته تعود الى استامبول دون علم منه بأمر صدر لها من استامبول وسأسرد حديث الخديوى مفصلا فى فرصة أخرى.

نعود الى نورى وجعفر فقد ساقهما هذا التقدير الخاطئ إلى أن يرتكبوا من الأعمال مالا يتفق فى قليل ولاكثير مع الشرف العسكرى ولايليق أن يسلكوه مع أعظم مجاهد ظهر بين المسلمين فى تلك الحقبة وهم مكلفون بطاعته واحترامه احتراما يليق بسمو مكانته عند الله والمسلمين، نسوا كل ذلك وبدأ جعفر يدبر (المقالب) لخلق جو من التذمر والغضب والمرارة يحمل الانجليز مكرهين على محاربة السنوسى وبذلك يكونون قد وصلوا الى غايتهم.

مقالب!

(المقلب الأول) فكر جعفر ودبر ثم ذهب الى السيد الامام يقول له ان قبائل أولاد على القاطنين فى حدود مصر الغربية سنوسيون مخلصون يدينون بالطاعة التامة لسيادته وهم ينعمون برزق وفير من الزرع والضرع ولا تطالبهم الحكومة المصرية بشىء فلا ضرائب ولا عوائد ولا رسوم ولا شىء مطلقا فلماذا لايسعى السيد الامام لدى الحكومة المصرية لتسمح له بتحصيل زكاة الاموال من هؤلاء السنوسيين لتكون عونا لاخوانهم المجاهدين فى برقة. وأولاد على لن يترددوا فى دفع هذه الزكاة بمجرد أن تصلهم رغبة السيد الامام بذلك والأمر لايكلف السيد الامام أكثر من أن يتكلم مع الاميرالاى اسنويك الذى سيسارع مغتبطا فى تلبيته... إن هذا الرأى لو صدر من مخلصين لكان رأيا سديدا وعملا فيه خير ونفع كبير ولكنه كان رأيا وراءه خبيئ ويستر شرا مستطيرا، فتقبل السيد الامام مشورة جعفر بالرضا والتقدير وأسرع فى استدعاء الاميرالاى اسنويك وطلب منه السماح بدخول بعض مشايخ السنوسيين الى الحدود المصرية والاتصال بأولاد على لتحصيل الزكاة وهى أحد الاركان الخمسة فى الاسلام لمساعدة اخوانهم المجاهدين فلم يسع الاميرالاى اسنويك إلا أن يرحب بالفكرة ويوافق على الطلب دون أن يرجع الى وأنا قائد منطقة مرسى

مطروح وحاكمها الى واحة سيوة، واغتبط سيادة السيد الامام بهذه الموافقة السريعة وبشر جعفر بذلك فماذا فعل جعفر المفكر المدبر؟ جمع كيده (نستغفر الله له) وجاء بمن اعدهم لطاعته فى الشر واوضح لقائدهم ما يريد، وهو انهم سيحملون تصريحا من الاميرالاى اسنويك لدخول الحدود المصرية وأمرا من السيد الامام بتحصيل الزكاة من قبائل أولاد على والمرابطين، وواجبهم وقد أتيحت لهم هذه الفرصة أن يقوموا بماعليهم نحو السلطان وخليفة المسلمين الذى أعلن الجهاد، وأن يأخذوا كل ما تصل اليه أيديهم من عرب أولاد على الذين لم يصبهم ما أصاب اخوانهم فى برقة وعاشوا ناعمين، وان لايرحموا من يتردد أو يمتنع عن كل ما يطلب منهم.

وبأسرع ما يمكن دفع هذه الجماعات من الاشرار وقطاع الطريق الى حدود مصر يحملون تصريح الاميرالاى اسنو وامر السيد الامام، فلم يصادفوا اعتراضا من قوات الحدود بعد ان اطلعوا على التصريح وأمر السيد السنوسى. فتوغلوا فى الحدود حتى وصلوا بين سيدى برانى ومرسى مطروح حيث تسكن الكثرة من القبائل العربية المصرية، وبدأ هذا الهجيج المسلح ينفذون خطتهم التى رسمت لهم فبدأوا السلب والنهب باسم الزكاة، وذبح الغنم بلا حساب لاكلهم، ونهب الجمال وهى ثروة العرب وتهريبها الى حدود برقة، ومن يتكلم يضرب حتى يغشى عليه ويفقد النطق، لايفرقون فى ذلك بين الرجال والنساء والاطفال، وفى ليلة واحدة أتوا من الجرائم مالا يفعله جيش العدو الكافر، واذا بعدد من مشايخ اولاد على يقتحمون مكتبى صارخين من هول المحافظين (كلمة محافظين تطلق على العساكر السنوسيين) قائلين: «هل تركتنا الحكومة نهبا لمحافظية سيدى أحمد؟ هل تخلت عنا؟ إذن اتركونا ندافع عن انفسنا ونقتل ونقتل» فلم يسعنى إلا أن أرسل فى الحال داورية من الهجانة ومعها ضابط للقبض على هؤلاء المجرمين لكى يأتونى بهم لأعرف ما سبب هذا، ولم يمض وقت طويل حتى علمت بكل شىء، تصريح من اسنو ونداء من السيد الامام بجمع الزكاة، وبينما الهجانة تقوم بحماية العرب من هذا الاعتداء اتصلت بالاميرالاى اسنو فى السلوم واطلعته على ماهو حاصل وسألته كيف يسمح بهذا دون ان يخطرنى وأنا المسئول؟ فلم يسعه وقد ارتبك الا ان يأسف ويعتذر، وقال لى تصرف فى الامر كيف شئت واعتبر تصريحى كأنه لم يكن، وفى الحال كتبت خطابا للسيد الامام وبعثته مع وفد من العمد والمشايخ الى سيادة السيد فى السلوم وكان خطابا مؤثرا فلما اطلع على الخطاب غضب أشد الغضب لما حصل وخرج عن حلمه المشهور

واستحضر جعفر فى الحال ولم يترك فى جعبة غضبة كلمة إلا أفرغها فيه وجعفر بقدر ما هو شجاع باسل فهو ممثل ماهر يملك دمع عينيه. فأطلق لمقلتيه العنان، وسال الدمع مدرارا، وقال للسيد الامام امام العمد والمشايخ: «ياسيدى، أتظن أن عبدك جعفر يرسل مثل هؤلاء المجرمين الخاسرين الى تحصيل الزكاة كلا والله ولكنه لابد أن اندس بينهم من لادين لهم ولاخلاق لهم من قطاع الطريق، فشوهوا الغرض الشريف الذى قصدنا اليه» ولكن غضبة الامام لم تطفئها دموع جعفر، ولا توسلاته، وأمره أن يقوم بنفسه الى داخل الحدود المصرية ويجمع كل المحافظين الذين اجتازوا الحدود ويعيدهم الى السلوم، ثم طيب السيد الامام خاطر العمد والمشايخ، وأظهر غاية الألم والأسف على ماحصل وردهم ردا جميلا، ودعا لهم بخير، وقال لهم أن هذا الاجرام لن يتكرر، وانه عافاهم من تحصيل الزكاة بسبب ما أصابهم، ثم بعث بأسفه للاميرالاى اسنويك وانه أمر جعفر بالقيام الى (حدود مصر) ليعيد كل عسكرى الى السلوم.

انكشف الامر

ولما وصل هذا الخطاب الى اسنو أمر القائمقام رويل(٢٦) أن يرافق جعفر فى مروره، وبعث لى السيد خطابا غاية فى الرقة يثنى فيه على كل ما قمت به ويرجونى أن أبلغ أسفه الشديد لقبائل أولاد على الذين أصابهم شر وأذى ودعا لهم بأن يعوضهم الله أضعاف ما فقدوا، ومر جعفر ورويل على المنطقة التى وقع فيها الاعتداء فوجدا أثر النهب والسلب والضرب، ووجدا أن جميع المحافظين قد فروا عندما رأوا داوريات الهجانة وعلموا بذهاب العمد والمشايخ لمقابلة السيدَ السنوسى وأخذوا معهم من الابل ما أخذوا.

وفشل «المقلب» الأول، وكان يقصد جعفر من وراء ذلك أن يحصل صدام جدى بين عرب أولاد على والمحافظين، ويشتد الصدام فينشر جعفر بين المجاهدين فى السلوم أن عرب مصر قتلوا المحافظين الذين بعثهم السيد الامام لجمع الزكاة، فيثير هؤلاء بدافع الانتقام لاخوانهم، ويندفعون غير مبالين الى حدود مصر، فاذا اعترضهم احد من الانجليز قتلوه، فيظن الانجليز ان السنوسى قد غدر بهم، وانه بدأ هجومه على الحدود، فتنقطع العلائق وتنشب الحرب.. ويتم المراد

هذا هو «المقلب» الأول وقد فشل بحكمة السيد الامام ولكن جعبة نورى وجعفر لاتزال فيها سهام وما سيأتى ذكره من المقالب يتضاءل بجانبه هذا المقلب. والى فرصة اخرى.

٥- الإتصالات الإنجليزية بالسنوسى أثناء الحرب العالمية الأولى

لما فشل جعفر باشا فى تدبيره الأول ولم ينجح فى قطع العلاقة بين الإمام المجاهد السيد احمد الشريف السنوسى وبين الانجليز حتى تنشب الحرب بينهما على حدود مصر الغربية، تلك الحرب التى لم يعمل لها اى استعداد جدى من جانب نورى وجعفر، ولايمكن أن يرجى لها أى توفيق فى أن تحقق شيئا من الهدف الاستراتيجى الذى تريده استامبول، ذلك الهدف الذى من أجله بعث أنور باشا أخاه نورى ومعه جعفر، وهذا الفشل هو ما تحقق فعلا مما سأوضحه فيما بعد.

وكانت خيبة أمل جعفر فى تدبيره الأول حافزا شديدا دفعه الى تدبير جديد «ومقلب ثان» يعوض ما خسره فى تدبيره الاول.

التدبير الثانى

طلب السيد الامام احمد الشريف السنوسى من الانجليز أن يأمروا طوافات خفر السواحل التى تأتى بانتظام الى ميناء السلوم بأن تأخذ بريده عند قيامها الى الاسكندرية، فوافق الانجليز فى الحال على ذلك وزادوا عليه أن قالوا للسيد أن خطاباته لن تتعرض لفتحها بمعرفة الرقيب، تقديرا لشخص السيد الامام، واشعارا بالثقة وتقديرا للصداقة التقليدية «بين السنوسى والانجليز» وبناء على هذا القبول وضع نظام بين سكرتارية السيد

الامام والاميرالاى اسنو بك يقضى بأن يخطرهم اسنو بك بساعة قيام الطوافة من ميناء السلوم، وان ترسل خطابات السيد قبل قيام الطوافة بساعة.

وسارت الأمور سيرها الطبيعى دون أى شكوى، حتى خطر للسيد جعفر أن يخلق من هذا البريد مشكلة سياسية لعلها تقطع العلائق وتوصله إلى المراد.

اتصل جعفر بالرجل الذى يحمل بريد السيد السنوسى إلى اسنو بك وقال له: «عندى خطاب مهم جدا فلا تنزل الى الميناء قبل ان تأخذه» وكان ميعاد قيام الطوافة فى الساعة التاسعة مساء، ومفروض حسب الاتفاق ان يكون بريد السيد السنوسى عند الاميرالاى اسنو فى الساعة الثامنة وانتظر المكلف بتوصيل البريد حسب أمر السيد جعفر حتى مضت الساعة الثامنة ثم التاسعة فنبه حامل البريد السيد جعفر، فقال له انتظر.. ثم مرت ساعات حتى بلغت الحادية عشرة، أى فاتت ثلاث ساعات على ميعاد وصول بريد السيد، ولم يصل الى الاميرالاى اسنو فظن اسنو انه ليس لدى السيد الامام السنوسى خطابات للاسكندرية، فأمر الطوافة بالقيام وقامت وفى هذه الاثناء كان جعفر قد وكل من يرصد قيام الطوافة، فما إن عرف انها تحركت من الميناء حتى سلم حامل البريد خطابا لم يعرف أحد ما بداخله، وربما كان ورقة بيضاء، وقال له «أسرع بتوصيل البريد» فأسرع الرجل، وما إن اشرف على الميناء حتى رأى الطوافة تخرج الى ظهر البحر فجرى حتى وصل الى خيمة الاميرالاى اسنو بك وهو يصرخ «بوستة سيدى» ولما رآه اسنو قال له: «نحن أخطرناكم من الصباح بأن الطوافة ستقوم فى الساعة التاسعة ومفروض ان يكون بريد السيد عندى فى الساعة الثامنة، والان فاتت الساعة الحادية عشرة فظننا ان ليس لديكم بريد ولهذا أذنا للطوافة بالسفر، ومع كل فستأتى الطوافة «ثور البحر» بعد ثلاثة أيام، فانتظروا قدومها» فعاد حامل البريد من حيث أتى، وكان جعفر فى انتظاره، وبمجرد أن رآه سأله «هل سلمت البريد؟» قال لا لأن الطوافة قامت وما أمكن اعادتها» فقال له جعفر «هات خطابى» ولاتقل للسيد انك تأخرت فى توصيل البريد فإنه سيوقع عليك عقابا شديدا وأنا سأتكلم مع سيدنا فى ذلك» ونفح «البوسطجى» خمسة جنيهات على الا يقول شيئا عن التأخير.

جعفر يسعى بالوقيعة

وفى الصباح علم السيد السنوسى ان بريده لم يسافر، وقال جعفر للسيد «كان لدى خطاب مستعجل بطلب ادوية ضرورية من الاسكندرية وتأخر «البوسطجى» عن ميعاده وقتا

قصيرا بسبب تجهيز الجواب فاستعجلت الطوافة وقامت مع ان الواجب كان يقضى بأن تنتظر وماذا فى تأخير الطوافة ساعة او ساعتين ثم كان الواجب ان يخطرونا ويستعجلونا اذا كان فى تأخير ساعة او ساعتين ما يفوت على الطوافة أمرا ضروريا، ولا أظن تأخير ساعة مما يستوجب ارتكاب هذه الغلطة الشنيعة، وعدم الاكتراث كأن بريد السيد شىء لايهمهم ولايعطى من العناية ما يستحقها، وفى هذا البريد كما تعلمون سيادتكم طلبات ضرورية لكم وأظن انه يجب اتخاذ اجراء حازم مع هؤلاء الانجليز حتى لايتكرر هذا العمل منهم فإذا نحن سكتنا فى هذه المرة فثق ياسيدى انهم سيتمادون فى ذلك «فقال السيد السنوسى: سأتكلم مع اسنو فى هذا الخصوص» فقال جعفر «لا لاياسيدى إن أمر الطوافات يجب أن يصدر من جهة أعلى من اسنو حتى لايتصرف هو مرة اخرى مثل هذا التصرف فإذا أمرتم فإنى أرسل باسمكم برقية الى الجنرال ماكسويل(٢٧) ألفت نظره الى ذلك ليصدر أوامره الى مدير عام خفر السواحل وسترون كيف تسير الامور بعد ذلك ولن تستطيع أية طوافة أن تتحرك من الميناء قبل أن تأخذ بريدكم او تخطروا اسنو انه ليس لديكم بريد أما هذا الاستخفاف والعبث فلا نسكت عليه «فقال له السيد» لا بأس من اخطار ماكسويل ليشدد على المسئولين باللازم».

وما إن سمع جعفر بهذا الأمر حتى أسرع الى نورى وأرسل برقية باسم السيد الى الجنرال ماكسويل فى القاهرة وكنت انا فى هذا الوقت فى مرسى مطروح وكان وكيل البريد والتلغراف «تادرس عبدالسيد» وكنا تلامذة فى فصل واحد فى مدرسة أسوان الابتدائية وكنت متفقا معه على أن يلتقط كل برقية مهمة فى طريقها الى القاهرة، لنكون على علم بمجريات الاحوال، واذا به قد جاءنى يجرى وفى يده صورة برقية من السيد الامام «وهى البرقية التى أرسلها جعفر الى ماكسويل» باسم السيد السنوسى يقول فيها: «قامت الطوافة عباس دون أن تأخذ بوستتنا وفى هذا الاهمال مافيه من عدم التقدير لنا، فإذا تكرر هذا العمل فسيكون بمثابة قطع العلائق بيننا».

قرأت هذه البرقية، فأدركت فى الحال مدى ما يجرى فى معسكر السيد السنوسى دون علمه، وعلمت فيما بعد ان نص البرقية لم يعرض على السيد، وظن انها مجرد اخطار للجنرال ماكسويل ليشدد التنبيه على المسئولين كما قال له جعفر، وقلت لنفسى ترى ماذا سيكون رد الجنرال ماكسويل على هذه البرقية.

وما إن غربت شمس ذلك اليوم حتى جاء الرد من ماكسويل الى السيد السنوسى وجاءنى بصورته تادرس افندى واليكم ما بقى فى الذاكرة من هذه البرقية: «الحسيب النسيب السيد أحمد الشريف السنوسى السلوم جاءتنى برقيتكم وأسفت كثيرا لقيام طوافة خفر السواحل قبل ان تأخذ بريدكم وقد أدركت من برقيتكم أهمية هذا البريد ولهذا صدرت الأوامر فى الحال الى الطوافة ديانة «ويلاحظ أن ديانة طرادة فرنساوية» لقربها من ميناء السلوم بأن تدخل الميناء لتأخذ بريدكم حتى لايتأخر وثقوا انه لن تقوم طوافة بعد الان قبل ان تحمل ما تريدون ارساله فيها».

ودخلت ديانة ميناء السلوم وتسلمت بريد السيد الامام وأوصلته الى الاسكندرية وفشل المقلب الثانى الذى دبره جعفر «بفضل برود الانجليز» الذين يصبرون على كل شيء إذا كان من وراء ذلك مصلحة لهم.

إعلان الجهاد

طلب الألمان من أنور باشا فى الخارج أن يحمل السلطان على إعلان الجهاد ووقف كثير من القواد الاتراك ضد انور باشا معارضين ذلك وقالوا لانور لاتطلب من السلطان اعلان الجهاد فإنه لن يأتى بأى نتيجة بل سيفضح المسلمين ويجعل معنى الجهاد لغوا وعبثا، بل سيأتى بعكس ما نطلبه فإن جميع بلاد المسلمين إما انها مستعمرات فى يد الحلفاء أو محميات أو محتلة فعلا فتكون النتيجة أن المسلمين سيحاربوننا مكرهين مرغمين بدلا من إن يجاهدوا معنا، وسترى ذلك فدعنا من اعلان الجهاد ولنهدد بهذه الكلمة بدلا من ان نعرضها لامتحان سوف نرسب فيه ويجلل العار عندئذ رؤوس المسلمين وتذهب هذه الكلمة «كلمة الجهاد» التى يخشاها اليوم أعداؤنا، تذهب هباء وتحمل معها تلك الرهبة التى تملأ قلوب المستعمرين للبلاد الاسلامية ونحن لم يسبق أن مهدنا لها أو أججنا فى القلوب سعيرها وبالرغم من الموقف الحازم الذى وقفه هؤلاء القواد كان الحاح الالمان على أنور أشد أثرا من معارضتهم، فأرغم السلطان على اعلان الجهاد وأعقب ذلك أن صدر فرمان سلطانى باقامة «السيد الامام المجاهد الأكبر أحمد الشريف السنوسى نائبا للخليفة الاعظم فى افريقيا» ومنح فيما منح من السلطات أن يرقى من يشاء الى رتبة عسكرية أو مدنية فى افريقيا على انه بعد عودة العسكريين الى تركيا يعودون الى أقدميتهم الحقيقية فى الجيش وبهذه السلطة منح نورى وجعفر رتبة اللواء فى افريقيا مقرونة بالباشوية.

تقدم جعفر باشا ونورى باشا للسيد السنوسى مكررين التهنئة بنيابة الخليفة الأعظم وقالا «يامولانا أنت أعلم منا بما يفرضه على المسلمين اعلان خليفة المسلمين للجهاد، وأنتم ياسيدنا الان فى مقام الخليفة فى افريقيا فأول واجب هو تحريض المسلمين وتعريفهم بواجبهم فى هذه الظروف فإن لم يستطيعوا ان يحاربوا مع الخليفة فلا أقل من أن يمتنعوا من الاستجابة لأعدائه، واحداث ثورات داخل بلادهم، ورجاؤنا الى سيادتكم ان تأمروا بكتابة خطابات الى زعماء المسلمين فى الشرق، تدعونهم للجهاد فى سبيل الله بقدرما يستطيعون وفى ذلك رضاء لله ورسوله وخليفة المسلمين، ونصرة للدين، والأمر اليكم» فقال لهم السيد الامام «دعونى أفكر فى الأمر» وتركوه وشمروا عن ساعد الجد فلم يتركوا فى المعسكر رجلا ذا نفوذ من اتباع السيد الامام الا ولجأوا اليه جاعلين من كلمة اعلان الجهاد دعاية واسعة النطاق ألهبوا بها صدور هؤلاء الزعماء، والعلماء، ومشايخ السنوسيين، قائلين انه أصبح لزاما بل فرضا دينيا الدعوة الى الجهاد وانتهى هذا السعى المتواصل بأن زين الجميع للسيد السنوسى كتابة الخطابات وارسالها مع رسول خاص وهى فى مأمن من الرقابة بمقتضى ما وعد الانجليز به، وبذلك يكون نائب الخليفة قد أدى واجبه الدينى، وما فرضه الله عليه فى هذا الموقف، فاستجاب لهم ولمشورة أولئك المشايخ والعلماء من اتباعه المخلصين، وكتبت الخطابات كما شاء نورى وجعفر وختمت بخاتم السيد وامضائه ووضعت فى خرج وأخذها الأمين المقرب فى خدمة الامام وهو «أحمد العابدية» وسافر بها فى اول طوافة قامت من السلوم الى الاسكندرية على زعم انها كالعادة خطابات تحمل طلب المعونة، وتستجدى أكف المحسنين حتى تستطيع برقة الاستمرار فى جهادها ضد الطليان.

الحقيبة المفقودة

ولم يعدم المفكر المدبر الوسيلة التى يشعر بها الانجليز بخطورة الخطابات التى يحملها أحمد العابدية ووصل حامل الخطابات الى القاهرة وبات فيها، وفى الصباح بحث عن حقيبة الخطابات فلم يجدها فجن جنونه وشرق وغرب، وصاح وبكى، وبلغ بالسرقة فلم يلتفت اليه أحد، وأخيرا علم أن الخطابات وصلت الى المخابرات الانجليزية، وهى فى حوزتها، وبعد أن اطلع الانجليز على محتوياتها أمر الجنرال ماكسويل بكتابة خطاب للسيد الامام وهذا بعض ما بقى فى ذاكرتى من محتوياته التى علمتها فيما بعد.. «السيد

الحسيب.. وبعد كلمات التحية والتكريم والتعظيم جاء فى الخطاب: لقد ساقت الصدفة الينا الاطلاع على الخطابات المرسلة مع تابعكم احمد العابدية وما صدقت أبدا ان ما جاء بهذه الخطابات يصدر من ذاتكم الكريمة ولم يخامرنا شك فى أن هذه الخطابات مدسوسة عليكم دسها من يعملون جاهدين على تكدير صفو العلاقات التى بيننا، ولثقتنا انكم لاتضمرون سوءا ابدا للدولة البريطانية ويعصمكم من هذا ايمانكم العميق الذى ينأى بكم عن كل سوء والصداقة التقليدية التى تربط بين الاسرة السنوسية الكريمة منذ نشأت هذه العلاقات مع جدكم العظيم محمد ابن على السنوسى ونجله السيد محمد المهدى وبين الامبراطورية الانجليزية، وبهذا ترون يا سيادة السيد اننا مطمئنون كل الاطمئنان لحسن نواياكم، ذلك الاطمئنان الذى حملنا على أن نكرم خطاباتكم فلا تصل الى فتحها يد الرقابة لهذا رأينا أن نعيد لسيادتكم هذه الخطابات لتطلعوا عليها، ولكم الرأى الاعلى فيما تتخذونه مع اولئك الذين زوروا هذه الخطابات ودسوها ونسبوها اليكم».. وقام رسول خاص من المخابرات البريطانية الانجليزية يحمل هذه الخطابات حتى أوصلها بنفسه إلى يد الإمام السنوسى!..

وفشلت المكيدة

وأترك للقارئ أن يتصور الحالة التى أصبح عليها نورى وجعفر أما سيادة السيد فلا أظن انه مر عليه يوم لقى فيه أقسى من هذه الصدمة.. وهكذا فوت الدهاء الانجليزى والبرود السكسونى على نورى وجعفر ما بيتاه وهكذا يستطيع الانجليز عند الفزع ان ينحنوا للعاصفة حتى تمر فى سبيل المصلحة الكبرى التى يهدفون اليها، وكان أمل جعفر أنه بمجرد أن يطلع الانجليز على هذه الخطابات لن يصبروا دقيقة على قطع العلائق، فليس وراء ما جاء فيها مكان للشك فى سوء نية السيد نحوهم وما يضمره لهم من بغض وعداوة رغم كل ماقدموه له من خدمات.

أقف عند هذا وفى الصفحات القادمة سنتعرض لما بقى من مقالب أشد وأنكى، انتهت الى قطع العلائق بين السيد السنوسى والانجليز، ونشبت الحرب التى كانت امنية نورى وجعفر أن تشتعل، ولو أحسنوا التقدير لعلموا انها لن تكون حربا، بل كارثة عليهم وعلى جيش السنوسى، وفشلا ذريعا فى تحقيق الهدف الذى ندبتهم حكومتهم العثمانية للقيام به وتأديته على الوجه الأكمل.

٦- محاولات جر السنوسى للإشتباك مع الإنجليز

كانت الصدمة شديدة على نورى وجعفر عندما فشل التدبير الثالث وظنا أن فيه الضربة القاضية على مابين السيد الامام السنوسى والانجليز، وان الإنجليز لايمكن أن يحتملوا أكثر مما احتملوا وأى خير يرجونه من توددهم وتملقهم للسيد السنوسى بعد أن تكشفت لهم نواياه وأن ألد أعدائهم لايمكن أن يضمر لهم من البغض ما يضمره لهم السيد. وهل هناك عداوة أمر واقسى من أن يكتب السيد الامام بصفته نائب خليفة المسلمين فى افريقيا خطابات الى زعماء المسلمين وقادتهم يحرضهم على الثورة ضد الإنجليز ويدفعهم إلى عصيانهم والتمرد عليهم فأى كراهية وأى عداء أشد مما عبرت عنه خطاباته والحرب مستعرة الأوار والانجليز يصطلون جحيمها، وهال نورى وجعفر هذا الدهاء الذى أظهره الانجليز فى إعادتهم خطابات السيد اليه مرفقة بذلك الخطاب الهين اللين الذى يسيل مكرا وكهانة فيمسح سخامات الصدور، لو أن السيد الامام كان من أولئك الذين يخدعهم لين الأفاعى ولكن هيهات.

رأى نورى وجعفر بعد هذا الرد الانجليزى الذى فوت عليهم أخبث مادبرا أن يسلكا طريقا غير الذى اتبعاه فى المقالب الماضية وأن يجعلا الانجليز والسيد السنوسى آمام الامر الواقع فى ثورة مشبوبة الأوار تقطع كل صلة بينهما وتسوقهما الى الحرب وبدءا فى

تنفيذ خطتهما فأرسلا فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٥قوة من الجيش السنوسى قوامها أربعمائة رجل وثمانية ضباط بقيادة وصفى باشا الخازمى (ضابط طرابلسى متخرج فى الكلية الحربية فى استانبول» ونزلت هذه القوة فى حطية قربة على مسافة ١٧كيلو من الشمال الغربى من سيوة، وفى هذه الحطية نفسها تعسكر قوة من هجانة الحدود بقيادة الملازم الثانى أحمد سالم، وهذه القوة تابعة لقسم مرسى مطروح وكان مركز سيوة فى هذه الآونة قد أصبح تابعا فى إدارته لمصلحة الحدود والسواحل بعد أن عجزت وزارة الداخلية حينذاك عن تأمين الامن فيه ووقوع عدة حوادث كان ضحيتها فى احدى المرات مأمور المركز وضابط وبعض العساكر، وأصبح هذا المركز تابعا لقيادتى فعينت فيه الملازم أول أحمد منصور (الاميرالاى أحمد منصور) معاونا يقوم بأعمال المأمور وأرجو أن أصل يوما بذكرياتى الى أن افى هذا الضابط حقه من تقدير مواهبه عندما يأتى دور الحديث عنه، بعد اعلاننا الثورة على الانجليز فى الحدود الغربية فى نوفمبر سنة ١٩١٥، وما قام به فى جد ودأب أثناء الجهاد الطويل المرير فى سبيل الوطن العزيز، هو وزميله الملازم الثانى محمود عبد الواحد (الاميرالاى محمود عبدالواحد) وهما الباقيان على قيد الحياة أطال الله حياتهما، وأما الباقون من اخوانهما الضباط المجاهدين فقد جاوروا الرفيق الأعلى شهداء خالدين فى جنة عرضها كعرض السماوات والارض اعدت جزاء وفاقا لذلك الجهاد المرير الطويل الذى لايصبر عليه إلا أولو العزم المؤمنون.

المقلب الرابع

نعود بعد ذلك الى القوة السنوسية بقيادة وصفى والتى توغلت فى الحدود المصرية ونزلت فى حطية قربة التى تعسكر فيها قوة الهجانة المصرية. علمت بنزول هذه القوة فى قربة من برقية وصلتنى من معاون مركز سيوة الملازم أحمد منصور فقدرت ان هذا العمل الايجابى لابد من أن يكون المقلب الرابع الذى دبره جعفر لاشعال نار الحرب وقلت فى نفسى ترى هل سيادة السيد الامام السنوسى يعلم شيئا عن هذه القوة المسلحة من جيشه التى دخلت حدود مصر وهل يعلم أن معنى ذلك اعلان حرب، وبمجرد أن وصلتنى برقية سيوة أخطرت الجهات العليا بمحتوياتها ولم تمض ساعات حتى جاءتنى الأوامر بأن اقوم فى الحال الى سيوة وأتصل بقائد السنوسية «وأقنعه» بمبارحة حدود مصر وأفهمه بما يترتب على بقائه داخل الأراضى المصرية فقمت فى الحال بسيارة «فورد» وهى أول سيارة

فى التاريخ كله تقطع الطريق بين مرسى مطروح وسيوة والمسافة (٣٦٠) كيلو مترا.

الجنية

وصلت سيوة فقابلنى الموظفون والأهالى بمظاهرة فرحين مسلمين وصار بعض اهالى سيوة الذين لم يروا فى حياتهم سيارة تمشى على الأرض بهذه السرعة وصاروا يتمسحون فيها وبعضهم يقول هذه «جنية» وبعضهم يقول هذا «البراق».

وبمجرد وصولى بعثت رسولا الى وصفى «باشا» قائد القوة السنوسية فى قربة اخطرته بوصولى، واننى سأزوره غدا، وعينت الساعة وفى الصباح قمت الى قربة ومعى الملازم أحمد منصور وعند وصولنا الى معسكر السنوسيين وجدت وصفى قد أعد لاستقبالنا حرس شرف، وبعد أن انتهينا من هذه المراسم ذهبنا الى خيمته فأكرمنا وبالغ فى الاكرام، ثم بدأت معه الحديث وأنى موفد من قبل الحكومة المصرية لابلغه أن نزوله فى قربة داخل الحدود المصرية بقوة مسلحة أمر غاية فى الخطورة على العلائق بين مصر وجارتها الشقيقة العزيزة برقة وهو كضابط عظيم لايجهل ماينطوى عليه مثل هذا الاعتداء وانى مكلف من قبل حكومتى أن أطلب منه مبارحة حدود مصر حتى لايحصل مالانرغب فيه نحن ولا أنتم ومالاتحمد عاقبته ولا أظن سيادة السيد الامام أحمد الشريف السنوسى يرضى ذلك أو يأمر به، فما كان من البكباشى «وصفى» الا أن قال لى (ياسيدى أنا عبد مأمور وجندى أنفذ ماصدر لى من الأوامر) ثم قدم لى ورقتين احداهما من السيد السنوسى يأمره بأن يأخذ معه قوة قليلة لم يعين عددها ويذهب إلى حطية (قربة) فى حدود مصر لتحصيل الجمارك من القوافل ثم قال: «وأنا ماجئت محاربا ولكن الأوامر التى عندى أن أعسكر على الحدود لكى أحصل الجمارك من قوافل تجار المجابرة من أهالى جالو وأوجلة الذين يأتون من مصر ويدخلون الحدود الليبية. دون أن يدفعوا للحكومة السنوسية رسوما جمركية على تجارتهم. وقدم لى ورقة ثانية من نورى باشا بامضائه يأمره أن يأخذ قوة قوامها أربعمائة جندى وبجانبه ضباط ويعسكر بها فى حطية قربة (وعينها بالاسم) لكى يحصل الفوائد الجمركية من تجار المجابرة الذين يعبرون الحدود فقلت له مادام الغرض هو تحصيل الرسوم الجمركية من القوافل فإن حطية قربة ليست المكان الأصلح من غيره لهذا الغرض ويمكنكم أن تحققوا هذه الغاية فى غير حطية قربة وتكون أصلح لكما كما تكون خارج حدود مصر وبذلك تجمعون بين تحصيل الرسوم الجمركية وتجنبون

انفسكم هذا الوضع الذى لايمكن تفسيره إلا انه اعلان حرب على مصر، ولكم فى جهة المناصب والملقة والقيقب وقارة الشهناب وقارة المجابرة وجغبوب نفسها لكم فى كل هذه الاماكن مايصلح لان تعسكروا فيه لتحصيل الرسوم الجمركية فقال لى إنى آسف كل الأسف حيث لا أستطيع ان أترك قربة المحددة فى الأمر الذى بيدى الا إذ صدر امر آخر من سيادة السيد السنوسى ومن القائد نورى باشا، فقلت له إن أمر السيد السنوسى ليس فيه تعيين قربة بالذات فقال: ولكن أمر القائد يحدد ذلك، وجئته بخريطة للحدود وأوضحت له كل ماقلته عليها ولكنه أصر على تنفيذ أمر نورى باشا فرأيت انه لايريد ان يقتنع فقلت له إنى أحملك مسئولية ماسيحصل نتيجة لهذا الاصرار على البقاء داخل الحدود المصرية، فقال لى لا حيلة فى ذلك. انا انفذ أمرا ولو اضطرنى ذلك الى القتال فعلمت ان الرجل لايفهم اكثر من ان ينفذ حرفية الامر الذى بيده من نورى، وأن المسألة ليست تحصيل عوائد جمركية بل عمل استفزازى له مابعده من النتائج، فأدركت نهاية ماوصل اليه تدبير جعفر ليزج السيد السنوسى فى حرب غير مستعد لها، وأدركت أن السيد الامام لم يعرض عليه أكثر من إرسال قوة صغيرة لتحصيل عوائد جمركية، وشدة حاجته للمال لتموين قواته المرابطة أمام الطليان فى برقة تجعله يقبل كل مايرى فيه عونا على امداد جيشه حتى يصمد فى دفاعه.

احتجاج

أنهيت كلامى مع البكباشى (اللواء) وصفى فودعنا بنفس الاكرام والاحترام فى استقبالنا، وعند وصولى سيوة أبرقت للاميرالاى اسنويك بما دار بينى وبين قائد قوة السنوسية، وفى ثانى يوم جاءنى رده يقول: «قدم احتجاجا لقائد هذه القوة وعد سريعا إلى مرسى مطروح تجد خطابا مهما للغاية نفذوا ما جاء فيه» فقمت فى الحال إلى قربة وقدمت للسيد وصفى احتجاجا كتابيا باسم الحكومة المصرية. ثم عقدت معه بعد ذلك جلسة خاصة عربية مسلمة بين مصر والشقيقة العزيزة ليبيا والتى لم تدخر مصر وسعا فى مساعدتها أثناء الاعتداء عليها، وقلت له: اسمع ياوصفى بك انت نزلت بقوتك فى قربة وها انت ترى فيها قوة من الهجانة المصرية واخشى ما أخشاه وقربة لاتوجد فيها غير بئر واحدة للماء تستقى منها القوة المصرية وها انت لن تجد ما تستقى منه قوتك غير هذه البئر الواحدة وهجين القوة المصرية ترعى من عشب حطية قربة وجمالك أيضا لن تجد

مرعى غير هذه الحطية وأخشى ما أخشاه اذا نحن لم نضع نظاما دقيقا يتعهد كل منا بتنفيذه بأمانة واخلاص أن تكون النتيجة صداما بين جنودنا وجنودكم بسبب الماء والمرعى وأى عار بل أى تبعة ثقيلة تقع علينا نحن المسئولين أنا وأنت اذا وقع شىء من ذلك بين المصرى والليبى بل بين العربى والعربى والمسلم والمسلم، فقال لى: أنا مستعد كل الاستعداد أن أنفذ فى دقة واخلاص كل ما تأمر به لتجنب أى حادث لاقدر الله يقع بيننا وبينكم وبناء عليه وضعت نظاما دقيقا للأيام والساعات لكل من القوتين للورود على البئر بحيث لايجتمعان أبدا على الماء فى وقت واحد ثم قسمت الحطية إلى منطقتين منفصلتين لرعى الابل بحيث لاتتجاوز قوة منهما منطقتها. ثم جمعنا بين الضباط وضباط صف القوتين فى حفلة تعارف وصداقة وألقيت عليهم كما ألقى وصفى مايجب للأخ على أخيه من واجبات اذا تجاورا ان يتزاورا فى محبة ومودة. حتى تنتهى الجهات العليا الى قرار فيه مصلحة الجميع. وودعنا بعضنا بعضا ونحن على أتم مانكون من الصفاء. وعدت الى سيوة ثم الى مرسى مطروح بعثت برقية بملخص ماتم بيننا وبين القوة السنوسية فى قربة.

تحريض على الثورة؟

وجدت مظروفا باسمى ومكتوبا عليه «سرى جدا» ولما فضضته وجدت بداخله خطابا لشخصى من الجنرال ماكسويل وآخر الى اللواء هنتر(٢٨) باشا لكى يحول الى خطاب ماكسويل وخطاب من هنتر الى اسنو ليسلمنى خطاب الجنرال ماكسويل ولما طالعت خطابى المرسل من ماكسويل قرأت فيه أن الاتراك قد غرروا باصغر اشقاء السيد أحمد السنوسى وهو السيد هلال السنوسى ودفعوه الى أن يخرج على طاعة أخيه السيد أحمد وسخروه للوصول الى افساد العلائق بيننا وبين السيد الكبير وذلك بأن يشعل ثورة فى سيدى برانى(٢٩) وهاهو قد مضى عليه نحو أسبوع يجمع فيه العمد والمشايخ من أولاد على ومشايخ الزوايا ويحرضهم على الثورة وهو فى كل ليلة يهاجم قسم سيدى برانى ويطلق عليه النيران فقتل بعض الجمال واصاب بعضها بجراحات والتعليمات الصادرة الى قسم برانى تمنعهم بتاتا من أن يقابلوا هذا الاعتداء بمثله وقد أنذرنا السيد هلال بما سيصيبه اذا هو استمر على غيه هذا وعرفناه أن السيد احمد غير راض عن عمله هذا وناقم عليه وفوض الينا الأمر فى أن نتخذ معه كل اجراء وبالرغم من ذلك فهو لايزال سائرا فى غلوائه يؤجج نار الفتنة باسم خليفة المسلمين وها أنا أبعث إليك فى هذا صورة

من البرقيات التى وصلتنا من سيادة السيد أحمد الشريف السنوسى وفيها تعلمون مقدار ألمه وأسفه وسخطه على السيد هلال. ويقول فى برقياته للحكومة المصرية أن تتخذ ماتشاء من اجراءات نحو السيد الهلال فهو خارج على طاعتنا مخالف لأوامرنا وأصبح مسخرا لغيرنا للاضرار بمصلحة وطننا، فهو الآن مسئول وحده عن كل ما يأتيه.

قرأت تلغرافات السيد الامام السنوسى للحكومة المصرية وانه يتبرأ من أعمال السيد هلال وكانت تنطق بالمرارة من تصرفات السيد هلال وظهوره بهذا المظهر الذى يدل على انقسام البيت الكريم بعضه على بعض. ينقسم البيت العظيم بيت السنوسى باعث الجهاد فى وقت ينظر فيه العالم الاسلامى كله بعين الاجلال والاكبار للجهاد العظيم والبطولة النادرة والبسالة المؤمنة وكيف رفع هذا الجهاد الباسل رؤوس المسلمين فى الشرق والغرب وأعاد الثقة فى نفوسهم وأوحى اليهم من جديد انه لاغالب للمسلمين من الناس ان كانوا مؤمنين.

قرأت برقيات السيد الجليل فتملكنى من الأسى والألم مالايستطيع هذا القلم تصويره، ثم مضيت فى قراءة بقية خطاب الجنرال ماكسويل الذى يطلب منى.

وقد أعيتهم الحيل فى اقناع السيد محمد هلال بالعودة الى السلوم والنزول على إرادة الوصى عليه السيد الامام أحمد الشريف يطلب منى أن اقوم مسرعا من مرسى مطروح إلى سيدى برانى حيث يعسكر السيد هلال ويجمع الجموع وينشر بينهم أمر الخليفة بإعلان الجهاد ولكن على من، على الضباط المصريين والجنود السودانيين فى قشلاق الحدود بسيدى برانى ويكلفنى الجنرال ماكسويل أن أبذل جهدى لاقناع السيد هلال بالعودة من حيث أتى والا فإنه اذا تمادى فيما يفعل فإنه سيندم طول حياته على كل مايقدم عليه بعد أن تأكد الانجليز انه خارج على أمر سيده وولى أمره السيد الامام، ويختم الجنرال ماكسويل خطابه بكثير من الاطراء لشخصى.

الضحك على الذقون

وعجيب أمر هؤلاء الانجليز فقد أتقنوا فن الضحك على الذقون، اذا كانت لهم حاجة عند أحد فلا يبخلون عليه بما يستحق ومالايستحق ويخلعون عليه من الثناء ثوباً فضفاضا.

طويت الخطاب واستعنت بالله أن أوفق فى هذه المأمورية ولا وربى ماكانت النية إرضاء الانجليز والنزول على أمرهم ولكنى أردت رأب هذا الصدع الذى يريد أن يحدثه السيد

هلال فى بناء البيت الرفيع العماد بيت السنوسى العظيم - ركبت السيارة ويممت، قسم سيدى برانى فوصلت فى نحو الساعة ٢ مساء والتقيت بمأمور المركز وأظنه ولا أقطع أنه السيد على عبدالوهاب (الاميرالاى على عبدالوهاب محافظ العريش أطال الله حياته) وسألته عما لديه من معلومات عن السيد هلال فقال لى: انظر ناحية زاوية سيدى برانى، يدلك المنظر على مايجرى هناك وهى الزاوية التى اتخذها السيد هلال مركزا لقيادة ثورته التى يريد أن يشعلها كما صور له خياله وزينها له جعفر ودفعه الى الخروج على أمر عائله أخيه الاكبر إمام المجاهدين السيد أحمد الشريف السنوسى - نظرت بالنظارة المكبرة إلى ناحية الزاوية فإذا حشود كبيرة من الرجال وخيل وجمال. وقص على السيد المأمور مايلاقونه كل ليلة من اعتداء الاعراب واطلاق النيران وقتل بعض الجمال وترويع النساء والأطفال داخل الثكنة وهم مكتوفو الايدى لايستطيعون أن يقابلوا الاعتداء بمثله اطاعة للاوامر والتعليمات الصادرة.

أدركت الموقف الذى ارتضاه السيد هلال وإن لم أستطع ان أقدر مداه فلم أضيع وقتى وركبت السيارة وليس معى أحد غير السائق فاعترض السيد المأمور وقال أتذهب الى هؤلاء المجانين بمفردك قلت نعم سأذهب اليهم بمفردى فلست عدوهم ولامحاربا لهم وأنا اعرف السيد هلال - عندما جاء من السلوم لزيارة الاسكندرية لأول مرة ونزل ضيفا على عندما كنت قائدا لقسم الضبعة فقال لى المأمور أنا أخشى عليك كثيرا من هؤلاء القوم وربما يصيبك أذى قبل أن يعلم السيد هلال بمجيئك فقلت له لاتخف فالله معنا.

وأمرت السائق بالسير نحو الزاوية وفى دقائق معدودة وصلنا واخترقنا الجموع إلى باب الزاوية ونزلت من السيارة وسمعت الكثيرين ينادون القومندان(٣٠)، القومندان وسألت أين السيد هلال فقالوا (جوه) مع العمد والمشايخ دخلت عليهم فلما رآنى السيد هلال قام وقام من معه وأحسن لقائى ورحب بى كثيرا وأجلسنى بجواره ثم واصل حديثه مع المجتمعين من العمد والمشايخ (المرفوتين) بسبب تهم وجهت اليهم أو اهمال فى أداء وظيفتهم.

سيدى تجلنز

وعلى العموم نظرت اليهم علمت انهم الموتورون الحاقدون على الحكومة - وبدأ يقول لهم السيد هلال «سيدى أحمد تجلنز - أى صار انجليزيا - ولم ينفذ أمر السلطان خليفة المسلمين بعدما أعلن الجهاد وعينوه نائب الخليفة الأعظم فى افريقيا والدولة زعلانة منه

لانه لم يقم باعلان الجهاد ونورى باشا وجعفر باشا كلفونى أن أنفذ أمر السلطان وبناء على أمر الدولة. انا جيت لكم يا اولاد على لكى نعلن الحرب على الكفرة الانجليز واللى يساعدهم (يعنى من المصريين) وانتم سيأتيكم خير كثير من الدولة العلية (وعلمت فيما بعد انه كان يكرر هذا الكلام ويردده فى كل مجلس وفى كل يوم) وفى أثناء كلامه كان يظهر التقزز والألم على وجوه المشايخ المجتمعين فأردت أن أجعل حدا لهذا الهراء فقلت: «ياسيد هلال أنا عندى معك كلام خاص بينى وبينك» عند ذلك قال للمجتمعين (الفاتحة) وأردفها: مايمشى منكم واحد لانى أريدكم بعد قليل وخرجوا وبقيت انا وهو وبدأت أحدثه ياسيد هلال هل تستطيع أن تعلمنى عن عدد القوة من المحاربين الذين وصلوا الى برقة مع سيدى ابن السنوسى رضى الله عنه عندما جاء اليه قال: سيدى ابن السنوسى ماجاء معه محاربون ولا كان على رأس جيش عندما دخل برقة. قلت إذن كم كان معه من البغال أو الجمال المحملة بالمال.

قال سيدى ابن السنوسى ماكان عنده مال ولا جمال ولابغال، قلت إذن ماذا كان عنده وماذا كان معه عندما جاء الى هذا الوطن قال ماكان مع سيدى ابن السنوسى شيء غير. كتاب الله وسبحته وعلم العرب وهدى العرب وبنى الزوايا وتبعته العرب كلها. قلت عظيم ياسيدى هلال جدك العظيم الجليل القدر سيدى محمد على بن السنوسى رضى الله عنه وأرضاه الذى جدد شباب الاسلام وعلم الناس الدين وهداهم الى الطريق المستقيم وبعث فى نفوسهم عزة الاسلام ووجههم وجهة الجهاد لإعلاء كلمة الله وها أنت تنعم بالمقام السامى من تراثه وميراثه حتى وصل إلى هذا المقام بالمنتسبين اليه من هؤلاء العرب الا ينطق باسم واحد من افراد العائلة السنوسية الا اذا كان على طهارة، بلغ الاجلال لكم الى هذا الحد فما معنى هذا السلوك الذى تسلكه انت وهل تدرى أنك بمثل كلامك الذى سمعته منك فى هذه الساعة تقوله للعرب عن سيدى احمد كبير هذه العائلة الآن وحامل لوائها وقائد جهادها وامام دينها وخليفة جدة اليوم فى هذا الموقف، هل تدرى انك بكلامك تحاول أن تهدم هذا الصرح العظيم الذى شيده جدكم الكبير وهل لو صدق العرب بعض ماتقوله لهم اليوم يبقى فى قلوبهم ذرة من ذلك الايمان بدعوة سيدى ابن السنوسى اللى جعلتهم مؤمنين مخلصين لها عاملين على اتباع كل ما أرشدهم اليه خاضعين لكم هذا الخضوع الذى تحاول أن تستغله اسوأ استغلال.

ياسيدى هلال اذا هدمت سيدى أحمد وزلزلت اعتقاد الناس فيه ماذا تكون انت من بعده ولمصلحة من هذه الحملة الباطلة الظالمة التى تقوم بها بين عرب مصر هنا فقط نطق وقال لأجل مولانا خليفة المسلمين) فقلت له وهل تدرك أنت حقوق خليفة المسلمين أكثر مما يدركها سيدى أحمد. ياسيدى هلال أنت تلعب بالنار ولاتدرى والذى ساقك إلى هذا إنما يريد أن يهدم بيتكم، ولكنه لن يستطيع لأن العرب والمسلمين لايعرفون من أنت ولكنهم يعرفون السيد الامام والوصى على التراث العظيم السيد احمد الشريف والسيد احمد قد تبرأ منك أمام الحكومة المصرية ومن إجراءاتك فأصبحت وحدك المسئول عن كل هذه الحماقات التى تقوم بها وأنا أسألك بصفتى «قومندان» هذه المنطقة على من تتكل انت فى احداث ثورة أو شغب فى أرض مصر ونحن سادة هذا البلد ونحن أعلم بمصلحتنا ولست انت ولا من زين لك هذه الحركة أحرص منا على تحرير مصر من أعدائها فقل لى: اين هى قوتك؟ واين هم رجالك الذين تريد ان تحدث بهم هذه الحرب داخل حدودنا وهذا التعدى الفاضح على قشلاق سيدى برانى وليس فيه انجليزى واحد وكلهم مصريون وسودانيون مسلمون فما معنى هذه الحركات؟ فقل من هم الذين سيتبعونك لتواصل هذه الاعمال البعيدة عن العقل والحكمة والتى ليس لها الا نتيجة واحدة هى الاضرار بشخصك، قال كل أولاد على عمد ومشايخ وعرب كلهم معى تحت أمرى وأنت بنفسك رأيت اليوم العمد والمشايخ الذين كانوا هنا الآن. فقلت إذن أنت تتكل على هؤلاء - عظيم - نادى ياسيد خادمك (وأنا أعلم أن كل من كان فى الحجرة معه هم بعض العمد والمشايخ المرفوتين لتهم لحقت بهم واستوجبت فصلهم من الخدمة).

نادى السيد هلال خادمه فقلت له اذهب واستدع العمد والمشايخ الذين كانوا هنا، فخرج وبعد قليل دخلوا جميعا فقلت لهم اسمعوا انا اعرف من أنتم وأنتم تعرفون من انا وإنى آمركم ان تغادروا هذه الزاوية فى الحال ومن يتخلف منكم بعد خمسة دقائق سيعرف ماذا يكون مصيره فخرجوا، ونظرت الى الساعة فى يدى وامتنعت عن الكلام مع السيد هلال وهو ينظر الى ورآنى لا أتكلم حتى اذا مرت خمس دقائق بالضبط، قلت للسيد هلال نادى خادمك فناداه قلت للخادم اذهب وادع العمد والمشايخ ان يعودوا الى هنا فذهب وغاب نحو ثلاث دقائق ثم عاد وقال ياسيدى العرب ركبوا خيلهم ومشوا فنظرت الى

السيد هلال وقلت أرأيت ياسيد جيشك الذى تريد أن تغير به على مصر. ياسيد هلال إذا كان الذى حضر بدلا منى عربة أو عربتين انجليزيتين مدرعتين ماذا يكون مصيركم والانجليز يعملون معك ما يشاءون وهم واثقون وآمنون من جهة السيد الامام أحمد الشريف وهو الوحيد فى تقديرهم الذى يعملون له حسابا. ماذا كان مصيركم فى هذه الليلة - أرأيت الحماقة التى ساقوك اليها من خدعوك.

ليه كده

قال والله ياقومندان أنا أقول لك اللى حصل. أنا فى السلوم جانى جعفر فى خيمتى وأخذنى الى نورى وكلمونى كثيرا عن الجهاد والخليفة وامر السلطان ومخالفة سيدى احمد لامر الخليفة ووعدونى بانهم سيولونى بدلا منه وأعطونى خمسمائة جنيه ذهبا ووعدنى جعفر بانه سيرسل خلفى جيشا معه مدافع ومترليوزات لمحاربة الانجليز وصدقتهم وحضرت الى هنا وحصل اللى حصل فقلت له كفاك ماحصل منك وقم معى وأنا أحميك من شر ما ارتكبته من حماقات فقام معى فى الحال وأركبته معى فى السيارة ورأى بعينيه أن كل الجمع الذى كان محتشدا تفرق ولم يبق أحد من تلك الزرافات وذهبنا الى سيدى برانى وتعشينا عند حضرة مأمور المركز واتصلت تليفونيا بالسلوم وطلبت من اسنو أن يرسل خبرا للسيد الامام سيدى احمد لكى يرسل خيلا لركوب السيد هلال الى المعسكر فى مساعد، وبعد العشاء تحركنا بالسيارة فوصلنا السلوم فى منتصف الليل ووجدنا الاميرالاى اسنو ومعه الضباط الانجليز فى انتظارنا وطبعا كان سرورهم عظيما وسلموا على السيد هلال وقال له اسنو «ليه تعمل كده ياسيد هلال ولولا القمندان - أشار الى - كنت الليلة دى بدل ماتكون فى السلوم كنت فى الطريق الى مالطة» فأخذت أنا السيد هلال من يده وابتعدت به عن الضباط الانجليز ووصلت الخيل من معسكر السيد احمد وركبت السيد هلال وصعد الى معسكر مساعد وكانت هذه الليلة هى ليلة عيد الاضحى المبارك.

اليوم الفضيل

وفى صباح يوم العيد طلبت من الاميرالاى اسنو بك أن أصعد الى مساعد لكى أعيد على سيادة السيد الامام أحمد الشريف السنوسى ولكى أراه لأنه لم يسبق لى أن رأيته ولو أن المكاتبات بيننا كانت مستمرة فى مناسبات كثيرة منذ حضر من الكفرة الى جغبوب

فلم يعترض اسنو على طلبى وصعدت هضبة السلوم الى مساعد وقد علم المعسكر السنوسى بقدومى فكان لقاء كريما وكان أول من قابلنى رسول السيد هلال وانتحى بى جانبا وقال لى ان السيد هلال يريد أن تزوره قبل أن تزور أى أحد آخر وهو يرجوك كل الرجاء أن تفعل ذلك فلم أر مانعا واتجهت نحو مخيمه واذا به واقف ينتظرنى وما إن رآنى حتى احتضننى ورحب بى أجمل ترحيب ثم أخذنى الى داخل خيمته وانتحى بى ناحية بعيدة عن زحام الوافدين وقال لى فى لهفة وسرعة أرجوك وأستحلفك بالله وبرسوله وبسيدى ابن السنوسى وهذا اليوم «الفضيل» «يقصد عيد الاضحى» ألا تذكر شيئا مما سمعته منى عندما تقابل سيدى أحمد، فقلت كن مطمئنا ياسيد هلال فلن يسمع سيدى أحمد ولاغيره كلمة واحدة مما قلته وثق يا سيد هلال اننى أحرص الناس على كرامة هذا البيت وسلامة كيانه. وان المسلمين فى الشرق والغرب يعلقون آمالا كبارا على وجوده فليس مثلى من يسعى للفرقة بين سادته بل كل همى منصرف الى تعزيزه وتأييده كما هو واجب كل مومن ولكن وصيتى اليك وقد تلقيت هذا الدرس القاسى أن تعرف أعداءكم من أصدقائكم وان لاتأتى مرة اخرى مثل هذه الحماقة فتكون أنت ضحيتها أما مكانة السيد احمد فلن يستطيع مخلوق أن يزلزلها أو يزعزعها. والعالم الاسلامى كله فى الشرق والغرب يعرف قدره. وانتهت مقابلتى مع السيد هلال واذا بشخص لا بالطويل ولا بالقصير بدين الجسم ذى لحية سوداء كثة تحيط بوجه أبيض مستدير يدخل دار السيد هلال فقام الجميع اكراما له وتهامسوا جعفر باشا.. جعفر باشا.. وما إن رآنى حتى تقدم نحوى مظهرا اللهفة والشوق والسرور العظيم بمقابلتى واحتضننى وأجلسنى بجواره وأكثر من التحية ثم قال والله العظيم منذ زمن طويل ونحن آنا ونورى فى شوق شديد الى رؤياك والباشا يقصد «أنور باشا» فى كل خطاب يصلنا فيه يسأل عنك ويثنى عليك وسبق أن تزودنا عند قيامنا من استانبول بالكثير من أعمالك وما قدمته له وللمجاهدين عندما كان هنا يتولى قيادة المحاربين وشكرته ودعوت للباشا بطول العمر والتوفيق وبينما نحن فى هذا الحديث وإذا بأحد أتباع سيدى احمد الشريف يأتى ويطلبنا لمقابلته فقام جعفر وقمت معه وتوجهنا ناحية مقر السيد الامام ودخلنا وكان لقائى لسيادته لا أستطيع وصفه ولا التعبير عنه وقابلنا نورى وغيره من كبار الاخوان الذين كانوا فى حضرته ثم حضر فطور يوم الأضحى فأكلنا جميعا واعقب ذلك الشاى على الطريقة السنوسية ولما انتهينا منه

وانتهت المعايدة رفع يده الشريفة بقراءة الفاتحة قرأها الجميع وهى ايذان بالانصراف. وقدم كل فرد يقبل يده الطاهرة وينصرف ولما جاء دورى قال لى فى همس انتظر فانصرف الجمع كله ولم يبق غيرى فى حضرته.

٧- المقابلة الأولى مع السنوسى

لما خلا مجلس سيادة الامام السيد أحمد الشريف السنوسى من كبار رجاله، وخرج نورى وجعفر ولم يبق معه غيرى بدأ حديثه بالثناء على شخصى وبالغ فيه حتى أخجلنى ولاحظ تأثرى وحاولت أن أجعل حدا لهذا الاطراء فقال لى فى النهاية: يا ولدى انت شاركتنا من أول يوم فى حربنا مع الطليان بل شاركت فيها قبل أن أقدم الى جغبوب من الكفرة فلا يمكن أن ينسى هؤلاء العرب ما قمت به مع اخوانك الضباط المصريين، ولولاكم ما قامت حرب ولما انتظم جهاد، ولا وصل من استانبول ضابط ولا سلاح ولا عتاد فضلا عن خير مصر علينا الذى لانستطيع له وفاء ولسنا نملك غير الدعاء أن يجزى الله كلا بما قدم وأحسن وتفضل.

وها أنت فيما تقوم به الآن كيف يمكننى أن أسكت على تقدير هذا الإخلاص وهذه المحبة لنا والتفانى فى مساعدتنا بكل ما تقدر عليه ومن كان يستطيع أن يرأب هذا الصدع فى كيان العائلة السنوسية الذى أرادنورى وجعفر أن يحدثاه بوساطة السيد هلال والذى كشف لى عن نواياهم وما بيتوه، ووالله لولا ولائى ووفائى لدولة الخلافة وأرى فيها الحصن الباقى للمسلمين رغم ما هم عليه ولولا الصداقة المتينة التى تربط بينى وبين أنور باشا وتقديرى لما صبرت على هذه الأعمال التى يقوم بها جعفر ويسوق معه نورى ولكنهم وقد فضحوا أنفسهم بما دبروه مع السيد هلال فقد أنذرتهم وعرفوا اننى لن أثق بهم بعد

اليوم ولن أطمئن الى وجودهم فى المعسكر ومنذ شهور وهم لايفترون عن ترديد القيام بحركة ضد الانجليز ويأتى الى كل يوم نورى ويقول لى: «نريد هركة ياسيدى» - بالهاء - فأقول له يا نورى باشا يجب ان تفهم انك اذا كرهت اليوم الانجليز او الطليان أو غيرهم من هؤلاء المستعمرين فانما تكرهونهم كراهية سياسية يعنى اليوم هم لكم اعداء وفى غد إذا تم الصلح بينكم يصبحون لكم أصدقاء أما أنا فاكرههم ماحييت كراهية تجرى فى دمى ورضعتها مع اللبن ويوحى إلى بها إيمانى كراهية نشأت فيها وعشت فيها وأنا أرى ما يرتكبه الفرنسيون فى السودان الغربى وما يرتكبه الطليان فى ليبيا وما سمعته من آبائى عن فظائع الفرنسيين فى المغرب وما يأتيه الانجليز فى مصر والسودان وكثير من بلاد أفريقيا، فكل جارحة من جوارحى وكل قطرة من دمى بل كل خفقة فى قلبى كل خلجة من خلجات نفسى يوحى بالكراهية.

إذن لست أنا الذى يتردد فى حرب أى من هؤلاء سواء اكانوا الانجليز أم غيرهم وها انت ترى ما نحن فيه من سوء الحال وقلة المدد ومع هذا لا زالت معسكراتنا فى برقة صامدة أمام الطليان والله يعلم أنهم كثيرا ما يبيتون على الطوى ويصارعون الردى، وانا لو استطعت لأشعلتها حربا ونارا على أعداء بلادنا وأعداء المسلمين الذين يتحكمون فى ديارهم ورقابهم ولكن كيف تطلب منى أن أتحرك وأعلن الحرب على الانجليز وأنت أعلم منى بحالنا وكنت أظن انك آخر من يطلب منى ذلك الطلب لأنك أول مسئول عن الاعداد والتجهيز حتى اذا قمنا بالحركة التى نريدها حققنا غاية ووصلنا الى هدف ولكنك لم تعمل شيئا حتى الآن ولم تستكمل نقصا ولم تهيئ جيشا له أى قيمة حربية، فقل لى بربك ماذا تكون نتيجة هذه الحركة غير تقديم الآلاف من أبناء برقة للذبح والموت الرخيص فهل هذا يرضيك وهل يرضى أنور باشا لو علم بما نحن فيه؟ لا، لا. أنا لا أقوم بحركة الا اذا كان لدينا بعض الاستعداد ولا أقول الاستعداد كله، أما وأنا أرى وألمس انه لا سلاح ولا ذخيرة ولا عتاد ولا مؤونة ولا وسائل نقل بل ليس لدى العساكر نعال فى أرجلهم ولا ملابس تقيهم بردا ولا حرا فكيف تكون هذه الحركة؟ بل أكثر من ذلك هؤلاء المجاهدون فى هذا المعسكر يتموّنون يوما بيوم من سوق السلوم يعنى بما يسمح الانجليز بتوريده من مصر، فكيف اذا نشبت حرب بيننا وبينهم وقفل الباب فمن أين يكون التموين، هل لديك خزين أسبوع واحد من المؤونة لهؤلاء المجاهدين؟ لا شىء.

حوار مع نورى

كان يا ولدى يسمع نورى منى هذا الكلام ولا يستطيع الجواب عليه ثم يعاودنى طالبا الحركة فتأكدت ان القوم غير جادين وانهم ملوا الحياة فى المعسكر لانه ليس فيه ما ينعمون به، حياة صحراوية قحلة قفرة مجدبة، لاترف فيها ولاملذات ولكن ما حيلتى فى ذلك وما ذنب هؤلاء الذين يريدون أن يدفعوهم الى الموت الرخيص؟ هذا هو حالنا وما أخفيت عنك أمرا ولا كتمت سرا وأنت من أعز الأبناء وأصدقهم وأخلصهم لنا ومع كل فليس فيما قلت سر، لأن الانجليز يعرفون ما نحن فيه وجواسيسهم تجوب معسكرنا ليلا ونهارا ولا رقيب ولا حراسة وعليه فهم لا يجهلون من أمرنا شيئا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وانتهى الحديث، واذا بالسيد الامام رضى الله عنه وأرضاه قد أمر لى بخلعة سنوسية من أغلى ملابسهم وكانت طقما كاملا فجاء الخادم ببقجة كبيرة(٣١) فيها هذه الهدية المباركة وقدمها الى معتذرا بأنه كان يود أن يقدم شيئا أكثر من ذلك، فقلت يا سيدى هذه فى نظرى أغلى ما كنت أتمناه وأعز ما أفتخر به وسأصونها طول حياتى وأوصى أن يكون بعض كفنى منها، فدعا لى بخير ولا شك أن دعاءه المستجاب هو الذى أسعدنى الى اليوم فى حياتى رغم ما لقيته أثناء الجهاد المرير، فودعته وداعا مؤثرا وخرجت من حضرته وما مشيت خطوات حتى قابلنى جعفر باشا وكأنه كان يرصد خروجى من حضرة السيد فسلم وقال لى ان الباشا (نورى) ينتظرك فى خيمته فذهبنا معا فقابلنى مقابلة حارة وبعد عناق جلسنا نتحدث فقال لى: «نحن نعرفك معرفة تامة من زمن بعيد وقد سمعنا عنك من الباشا (يقصد أنور باشا) الشىء الكثير وسمعنا أكثر بعد وصولنا الى هنا» فقلت فى نفسى والله إن ما سمعته عنى هنا لايسركم ولايرضيكم، وانتم تعملون جاهدين على زج السيد الامام السنوسى فى حرب مع الانجليز ولم تكلفوا أنفسكم أن تقوموا ببعض الواجب فى اعداد جيش أو شبه جيش ليحقق شيئا من الهدف الاستراتيجى الذى جئتم الى افريقيا من أجله.

بدأ السيد نورى حديثه يقول: «والله اننا فى حيرة شديدة من أمر السيد أحمد فهو يعدنا بأنه سيأمر بالحركة ضد الانجليز بعد شهر مثلا ونكتب نحن الى استانبول بذلك ثم يأتى بعد مرور الشهر ليقول لنا أننى رأيت سيدى المهدى فى المنام فقال لى

أخر الحركة، ويعين ميعادا اخر، فنكتب الى استانبول أيضا وعند حلول الميعاد ومطالبتنا له بالحركة يقول انه رأى سيدى ابن السنوسى يقول ان استعدادكم لايغنى للقيام بحركة فلا تقدم عليها الآن ويعين ميعادا آخر وهكذا أصبحت التحركات الحربية مرتبطة بالاحلام! فهل سمعتم شيئا أعجب من هذا؟ فسألته. يا باشا هل انتم الآن على استعداد للقيام بهجوم أو بمباداة الانجليز بالحرب؟ قال نعم: قلت هل استكملت كل شيء بحيث تستطيع قوتكم ان تصمد أمام عدو لاتظنوا انه غير مستعد لمقابلتكم. قال نعم نحن مستعدون تماما. وبعد هذه الجملة مباشرة قال أنا أريد أن أسألك: هل اذا قام ضابط من عندنا على رأس «مفرزة» والمفرزة فى اصطلاح الجيش التركى هى القوة الصغيرة المركبة من مختلف الاسلحة، هل يستطيع قومندان هذه القوة ومعه نقود أن يمونها بعد نزوله من السلوم ودخوله الحدود المصرية؟ قلت ماذا تقول يا باشا؟ تريدون تموين جيشكم من العقبة والعقيبة؟ - وهذه أسماء المنطقة بين مريوط والسلوم - يا باشا يجب أن تعلم أن عرب أولاد على وهم سكان الصحراء الغربية يصبحون بمجرد أن يقفل الانجليز باب تموينهم فى أشد الحاجة الى ان تقوموا أنتم بالتموين اللازم لهم لا أن يقدموا لوحداتكم مؤونة، ومن قال لسعادتك ان فى العقبة أو العقيبة مخازن ومتاجر وأسواق تباع فيها المؤن؟ فرأى نفسه انه قد تورط أكثر من اللازم فقال: «لا. لا. نحن عندنا مؤن ولكن أقول ذلك لأنه ربما تطول الحرب فنحرص على ابقاء المخزون عندنا ونشترى غيره» وقد ثبت بعد قطع العلائق مع الانجليز ونزولهم الى السلوم انه لم يكن لدى الجيش مؤونة يوم واحد الامر الذى اضطر المجاهدين ان يسطوا على خزين العرب من تقاوى العام المقبل ليتمونوا به فضلا عن اعتدائهم على كثير من مواشى وأموال أولاد على... لم يقف الباشا عند هذا وسألنى سؤالا آخر. قال أظن ان جميع أولاد على مخلصون للسيد ولدولة الخلافة وانهم سمعوا بإعلان الجهاد، وطبعا كلهم عندهم سلاح ويستطيعون ان يحاربوا معنا؟ قلت أما عن الاخلاص والرغبة فى الجهاد فنعم أما عن السلاح فلا، وكنت أظن أن الباشا يعلم أن قانون حمل السلاح فى مصر يمنع من حيازة سلاح الحرب الا بترخيص ولن يستطيع واحد من أولاد على الحصول عليه ولهذا يجب أن يكون لديكم من السلاح والذخيرة ما يكفى لمن يريد المساهمة فى الجهاد.

واستدرك وقال: عندنا سلاح كثير وذخيرة زى التبن.. وظهر بعد ذلك أن كثيرا من أفراد الجيش نفسه لا سلاح معه ولا ذخيرة. قلت يا باشا مضى عليكم نحو تسعة اشهر وانتم على حدود مصر الغربية فكان يجب أن تكون معلوماتكم وافية عن الحالة فى هذه الحدود ونصيحتى اليكم أن تستكملوا استعدادتكم قبل أن تقدموا على المخاطرة بحركة مذبوحة ولا تظن أبدا ان الانجليز من الضعف بحيث لايستطيعون أن يقابلوكم بقوة يقدرون لها الغلبة عليكم ثم ارجو بإخلاص الا تؤولوا تملقهم وأدبهم ولينهم مع السيد السنوسى الى شىء اكثر من أنهم لايرغبون فى فتح جبهة ثانية فى حدود مصر الغربية فى الوقت الذى يرقبون فيه هجوما من الشرق على القنال ومشغوليتهم فى الدردنيل وخوفهم من ثورة فى مصر اذا اجتاز جيش الشرق قنال السويس، وكما يقال انه سيكون على رأسه خديوى مصر كل هذا يحملهم على أن يهادنوا سيادة السيد السنوسى ما استطاعوا الى المهادنة سبيلا لكسب الوقت وأكرر مرة اخرى انه ليس معنى ذلك عجزهم عن مقابلتكم بقوة تفوق قوتكم بكثير والعجيب ان معسكركم مفتوح للغادى والرائح وانهم يعلمون عنكم كل شىء. بل ويعرفون قوتكم بالضبط حتى الموجودة فى بير واعر وهى القوة التى تحرصون على أن تكون فى سرية لايعرفها غيركم، عندما قلت قوة بير واعر ذهل نورى واضطرب جعفر وقال: كيف؟ كيف؟ قلت نعم يعرفون كل ذلك. فقال نورى نحن نخشى إذا تأخرنا عن الحركة أن يسبقنا فى الدخول الى مصر جمال باشا ونحن نريد أن نسبقه إلى ذلك أو على الأقل ندخل معا هو من الشرق ونحن من الغرب (وفيما بعد علمت السر فى ذلك وهو المنافسة الشديدة التى كانت بين أنور باشا بصفته وزير الحربية وجمال باشا وهو لايريد انتصارا لجمال بأى حال ولهذا كان الهجوم على القنال ضعيفا هزيلا مخجلا بسب تقاعس أنور باشا عن تجهيز جيش الشام التجهيز الواجب للهجوم على القنال فكانت الهزيمة الشنيعة التى لم تكلف الانجليز شيئا يذكر والتى خيبت الآمال) ثم واصل نورى حديثه فقال: «نحن نريد أن نخرج الانجليز من مصر ونرد لمصر جميلها فى موقفها معنا فى حربنا مع الطليان فى ليبيا والتى لولاها ما استطعنا أن نرد بعض اعتبارنا بين الأمم ولذهبت ليبيا ضحية رخيصة وخلفت لنا العار. نعم تركنا ليبيا ولو أنها لاتزال تحارب وتناضل من غير أن نكون معها الآن ولكن استيلاء الطليان عليها بعد أن خلع السلطان

عبدالحميد وقيام تركيا الفتاة بأعباء الحكم فإذا بها تفقد آخر ولاية لنا فى افريقيا دون طلقة واحدة كان هذا منتهى الخزى الذى يسجله التاريخ علينا (وكان جعفر يترجم له بعض الكلمات التركية التى يستعصى عليه معرفتها باللغة العربية) ولما رأيت نورى بدأ يتكلم فى السياسة أردت أن أخوض معه فيها فقلت له أخشى يا باشا أن تكون نيتكم مبيتة على أنه إذا استطعتم اجلاء الانجليز من مصر أن تفكروا فى العودة لحكمها. فما أن سمع ذلك حتى انتفض وقال كيف تحدثنا انفسنا بذلك؟ ونحن نعلم ان مصر اصبحت أعلم منا وأغنى منا وأكثر عددا منا وأوسع ثقافة فى كل ناحية؟ لا. لا هذا لايخطر على بال أى من رجالنا القائمين فى الحكم بل نحن جميعا نريد أن نرى مصر دولة مستقلة صديقة لنا تقف بجانبنا ونقف بجانبها دولة مسلمة قوية. ونحن نريد أن نكفر عن أخطائنا نحو مصر، فنحن نشعر أن موقفنا السلبى عندما أقدم الانجليز على الهجوم على مصر وسكوتنا على ذلك، كان هذا الموقف خطأ شنيعا سهل على الانجليز احتلال مصر فأصبح من واجبنا كما أخطأنا نحوها فى الماضى أن نصلح هذا الخطأ متى مكنتنا الفرص ونساعدها على استقلالها. وأرجو من اخواننا المصريين جميعا أن يثقوا بنا ويطمئنوا الى حسن نيتنا واخلاصنا فى صداقتنا. وهذا السؤال الذى سألتنى اياه سأله محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى المصرى للمسئولين فى استانبول فأكدوا له مثل تأكيدى هذا لك وزيادة».

بركان ورائى

وعندها أردت ان اجعل حدا للحديث فقد طال فقلت له أرجو ان تفهم استانبول أن حملتكم فى الشرق وفى الغرب على مصر لاجلاء الانجليز اذا فشلت فستترك أسوأ الأثر فى نفوس المصريين المتشوفين لهذا الهجوم حتى يشتركوا معكم بثورتهم ودمائهم فى سبيل الخلاص من الاحتلال فاعملوا جاهدين على استكمال استعدادكم حتى نضمن النجاح لنا ولكم. والله ولى التوفيق فقال إن شاء الله سنوفق ونحقق لمصر هدفها. وتصافحنا وخرجت ونزلت إلى ميناء السلوم حيث قابلنى اسنو بك وما إن صافحنى حتى سألنى كيف وجدت سيدى أحمد؟ قلت بخير وفى صحة وعافية ثم قال ما رأيه فى هذه الحوادث المتتالية التى لاتنقطع؟ قلت غير راض عنها قال إذن لماذا لايمنعها ويكون صديقا لنا كما نحن له ولايعرض نفسه ورجاله إلى العاقبة السيئة جدا عليه؟ قلت سيعمل، وإذا باسنو يضع يده على كتفى ويقول: اسمع منى اؤكد لك انه مادام الترك فى معسكر السيد

فسيغلبونه على أمره وسيجد نفسه فى حرب معنا رضى أو لم يرض وفى وقت قريب ونحن إذا أسفنا على هذه النتيجة فإنما نأسف لإننا كنا نود أن تبقى صداقتنا مع السيد السنوسى مستمرة. ولكن لا لوم علينا فقد عملنا كل ما يمكن عمله لنحول دون الكارثة التى سيدفعه الضباط الاتراك اليها وكان الواجب عليه أن يكون أكثر حزما مما هو عليه الان بعد أن كشف الاعيبهم فيقصيهم عن معسكره الى الغرب أو يعيدهم فى غواصة الى استانبول. أما تركهم هكذا فالنتيجة نحن واثقون منها وهى ان الحرب بيننا وبين السنوسى واقعة لامحالة. ولما وصلنا الى هذا الحد قلت له أنا أريد أن اعود الى مرسى مطروح فكرر لى الشكر على ما قمت به وودعنى ونادى على بقية الضباط الانجليز فودعونى وركبت السيارة عائدا الى مطروح، وما تحركت السيارة حتى رأيت نفسى نهبا مقسما للأفكار وظللت طول الطريق أفكر فيما سمعت من سيادة السيد السنوسى الكبير ثم ما سمعته من نورى وأخيرا ما قاله الأميرالاى اسنو فأدركت انى خلفت ورائى بركانا لايلبث أن يثور فسيادة السيد السنوسى أصبح لايثق أبدا بنورى باشا وجعفر ومن لف حولهم ولايطمئن مطلقا الى وجودهم فى معسكره ونورى وجماعته أصبحوا يتوجسون خيفة وينتظرون شرا ينزل بهم بعد أن كشفت نواياهم وظهر للسيد جليا مادبروا وبيتوا وانهم أبعد ما يكونون عن الاخلاص فى عملهم معه وان كل همهم منصرف الى إحداث حركة تكون نتيجتها ما تكون ويرغم السيد مكرها على خوض معركة فاشلة.

المباغتة!

وصلت مرسى مطروح وهذه الهواجس تملأ رأسى ونفس ولا أدرى المصير وظهر لى أن الانجليز قد سئموا التودد والتملق والتقرب غير المجدى والذى اطمع فيهم نورى وأتباعه دون أن يصل بهم الى غرضهم وقد أصبحوا فى حالة يأس لن يصبروا عليها أكثر مما صبروا. وصرت أنا فى مطروح أعد الايام وما يأتى به الغد لأنى قياسا على ما رأيت أن نورى وجعفر سوف يستعجلان المصير قبل أن يقبض عليهما ويفلت من أيديهما الزمام، ووقع ما كنت أحاذره فلم يمض على وصولى إلى مرسى مطروح إلا اثنا عشر يوما حتى ارتفع فى صباح ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٥ على الطابية البحرية البيرق الذى يشير الى قدوم طوافة من الغرب قاصدة الدخول فى ميناء مرسى مطروح دون سابقة اخطار أو علم بقدومها لأن العادة الجارية أن نخطر بكل طوافة قادمة من الشرق أو الغرب وقاصدة

الدخول فى ميناء مرسى مطروح إلا فى هذه المرة، فكانت مفاجأة وظهر بعد قليل أنها الطوافة عبدالمنعم التى كانت راسية فى السلوم والتى كانت دائما على استعداد للابحار فى الليل والنهار وظلت فى حالة طوارئ منذ مدة نظرا لتوجس الانجليز من حركة ضدهم فى أى وقت. ونزلت أنا الى الميناء وما ألقت الطوافة مرساها حتى قفز منها القائمقام هوايت(٣٢) وبعد أن سلم على قال لى فلنترك الكلام الآن وسعادة البك يريد مقابلتك حالا فى الطوافة (وسعادة البك هو الاميرالاى اسنو) فقفزت إلى داخل الطوافة وإذا بالاميرالاى اسنو واقف على الكويرته فلما رآنى تقدم وسلمنا ثم ابتدرنى بقوله: «اما قلت لك أن الأتراك لابد أن يورطوا السيد السنوسى فى حرب ضدنا ولولا اننا تنبهنا الى ما اضمروه لمباغتتنا ليلة امس لكنا اليوم أسرى فى ايديهم؟ ثم قال لى سأنزل الان وأتوجه الى مكتبك فى القسم ولى معك كلام طويل عن الاجراءات التى ستتخذ فى مطروح من اليوم. وفعلا نزلنا معا وتوجهنا إلى المكتب وانضم الينا القائمقام هوايت وبدأ اسنو كلامه أو تعليماته أما ما هو المقلب الأخير الذى دبره نورى وجعفر فأفزع الانجليز حتى فروا هاربين من السلوم فقد علمته بعد ثورتنا والتقائنا بالسيد الامام السنوسى وسيأتى ذكر ذلك فى الصفحات التالية.

٨- كيف أعلنت الثورة ضد الإنجليز في عام ١٩١٥

اجتمعت مع الاميرالاى اسنو والقائمقام هوايت فى مكتبى فى مرسى مطروح بعد نزولهما من الطوافة «عبدالمنعم» التى عادت بهم جميعا من السلوم فرارا من وقوعهم ومن معهم أسرى فى أيدى نورى وجعفر كروايتهما لى. وبدأ اسنو كلامه فقال: «لقد غلب نورى وجعفر السيد أحمد السنوسى على أمره، وورطاه فى قطع علائقه معنا فنحن من اليوم فى حالة حرب معه، وستصل القوات الانجليزية تباعا الى هنا وستكون مطروح قاعدة للعمليات الحربية ضد السنوسيين والترك، وسوف يندم السيد أحمد ندما شديدا على تردده وعدم حزمه فى اقصاء الاتراك عن معسكره. والان قبل أن أكلفك بأى عمل فيما نحن قادمون عليه، لى معك كلام خاص.

إتفاق على إبعادى

وعندما نطق بعبارة «كلام خاص» رأيت القائمقام هوايت قام مسرعا وخرج من المكتب وكأنهما كانا متفقين على أمر. وبدأ اسنو حديثه فقال: «أنا أعلم وهنتر باشا أيضا يعلم ولا أظن الجنرال مكسويل نفسه يجهل انك مسلم شديد التعصب لدينك ووطنك، وقد ظهر تعصبك هذا جليا فى أثناء الحرب بين ليبيا وايطاليا، ولا اريد أن اعيد الحديث فى ذلك فقد سبق أن تكلمت فيه معك عندما كنت قومندانا لقسم الضبعة وجاءت مناسبة تهريب

الاسلحة والذخيرة والضباط الاتراك من حدود مصر الى ليبيا، وكنا نقدر شعوركم كل التقدير وكنا نقدر الروابط التى كانت تدفعكم لهذه المجازفة انت واخوانك الضباط، فلم يحل ذلك دون تعيينك قومندانا لقسم الضبعة وانت لاتزال برتبة الملام أول. وكانت الاحتجاجات كثيرة وطلبات التعويضات التى تطلبها ايطاليا من مصر لاتنقطع وكنت أقول فى نفسى لو كنت مكانه لم يسعنى الا ان اعمل مثله. والآن اسمع منى فإنى أخاطبك كأنك ابنى، لقد كنت كفؤا فى عملك وتأدية واجبك فى وظيفتك» وهنا أحبس قلمى لأنه اطنب فى الثناء على ثم استمر يقول: «نحن لانريد أن يدفعك تعصبك الى أن تقدم على عمل يقضى على المستقبل الذى ينتظرك، ويؤلمنا كل الألم أن تنتهى الى مثل هذه النتيجة فتذهب أعمالك المجيدة التى قمت بها مع الريح. وتقديرنا لك جعل هنتر باشا يتحدث معى كثيرا بخصوصك وكان يقول أنا أخشى على هذا الضابط من تهوره وتعصبه اذا ساءت الحالة فى الصحراء الغربية واضطررنا الى حرب مع السنوسى، ويقول أنا لا أنسى كيف استطاع ان يضلل القائمقام موريس(٣٣) بك ويهرب قافلة من مئات الجمال تحمل سلاحا وذخيرة الى برقة وكيف ثارت واحتجت ايطاليا وطالبت بالتعويض، وكيف قامت علينا جميعا قيامة الجنرال كتشنر(٣٤) وما أصاب القائمقام موريس بسبب افلات هذه القافلة. لهذا نخشى أن يرتكب هذا الضابط حماقة فى ثورة تعصبه تودى به، فإذا تحرجت الحالة على الحدود الغربية يمكنك ان تخيره فى القيام باجازة غير محدودة المدة، وتفهمه ان هذا تقدير منا له لاننا لانريد احراجه وحتى لايضطر الى الاساءة لنفسه، وها أنا أعرض عليك أمر هذه الاجازة فما قولك؟».

تدفق القوات

قلت له: «إنى أرى فى كلامك هذا اتهاما لى فهل قصرت فى واجب؟ فقال: لا لا لاتؤول كلامى هذا التأويل بل هذا العرض إنما هو اشفاق عليك لنبعدك عما لايرضيك. أن تشترك فيه» فقلت له: «إن قيامى من هنا فى هذا الوقت أعتبره ماسا بكرامتى، وكأننى غير مرغوب فى بقائى هنا» فقال: «أما وقد فسرت الأمر هذا التفسير فإبق حيث انت، ويسرنى كل السرور أن تبقى بل نحن فى اشد الحاجة اليك».

ثم رن الجرس وقال للمراسلة: «ناد القائمقام هوايت بك».

وحضر هوايت وبدأ اسنو يتحدث من جديد كأن لم يكن بيننا حديث سبق هذا فقال لى:

«انت من اليوم الحاكم العسكرى فى مرسى مطروح، ولك كل سلطان الحاكم العسكرى، كما عليك كل واجباته، وسيكون اتصالك بالقائد العام لهذه الجبهة الغربية، وأنا واثق كل الثقة انك خير من يؤدى واجبات هذه الوظيفة فى هذه الظروف الحرجة، وأول ماتبدأ به عملك الان هو ترحيل جميع سكان مطروح من المدنيين وعائلات الموظفين، وجرد جميع مافى الدكاكين من بضائع وتقدير ثمنها، وأنا سأعطى أصحابها ايصالات بها لتحصيلها من الاسكندرية، ويجب أن ترحلوا كل من يمكن ترحيله بالطوافة عبدالمنعم وإذا بقى أحد بعد ذلك فليرحل بالبر».

وما وافت الساعة الثانية بعد ظهر هذا اليوم ٢٣ نوفمبر حتى وصلت الى ميناء مطروح النقالات من الاسكندرية تحمل فرقة من الجنود الهنود، ومعها كل مايلزم من مؤونة وعتاد ومعدات للقتال وعند الغروب وصلت ست وثلاثون سيارة مدرعة بطريق البر. وبدأت عملى بتشكيل لجنة فى الحال لجرد بضائع التجار. وبدأت السيارات المدرعة بعد غروب الشمس تأخذ أماكنها حول مرسى مطروح، وتقوم دورياتها بالطواف غرب البلدة وجنوبها وفوق الهضاب المشرفة عليها وأمضينا هذه الليلة فى حركة لا تهدأ.

وفى الصباح الباكر من يوم ٢٤ نوفمبر وصلت طائرتان ونزلتا فى المطار وفى الساعة التاسعة صباحا قدمنى اسنو لقائد الجبهة ومعه أركان حربه فقال القائد محييا: «أنا أعرفك قبل أن أراك وأنا مسرور جدا لان نلتقى ونعمل معا» وقدم لى احد اركان حرب وقال: «هذا ضابط الاتصال بيننا فى كل ما تريده أو نريده» ووصل فى صباح هذا اليوم آلايان من الفرسان، ثم عدد كبير من اللوريات والمدفعية. وكل هذا يدل على أن الانجليز كانوا قد أعدوا العدة للحرب وجهزوا قوتهم الضاربة فى الاسكندرية لتتحرك بمجرد أن يصدر لها الأمر.

وفى هذا اليوم وصل البكباشى تويدى(٣٥) قادما من سيدى برانى، ومعه ست عربات مدرعة كانوا قد أرسلوها الى هناك بعد الحركات التى قام بها السيد هلال فى سيدى برانى وانتهت الى عودته الى السلوم. حضر البكباشى تويدى بعربته المدرعة وترك خلفه الضباط والجنود والموظفين المصريين والسودانيين وعائلاتهم الذين كانوا فى قسم سيدى برانى، فلما سألته عنهم قال أن الأمر الذى صدر اليه من الأميرالاى اسنو يقضى بأن يقوم حالا بالسيارات الى مطروح بعد أن ينبه على قوة الهجانة والموظفين الذين فى سيدى

براني بأن يعودوا الى مطروح بالجمال، فتوجهت فى الحال الى الاميرالاى اسنو وأعلنته بوصول البكباشى تويدى والسيارات المدرعة، وانه ترك خلفه كل من كان فى سيدى براني من عسكريين ومدنيين وعائلاتهم بناء على أمره «أمر اسنو» فقال اسنو: «صحيح أنا أصدرت هذا الأمر» فقلت له: «ألم تقدروا ما قد يترتب على ترك هولاء فى سيدى براني معرضين للهجوم عليهم ومعهم نساء وأطفال؟ أما كان من الواجب أن يبقى البكباشى تويدى بالسيارات المدرعة حتى يرحل هؤلاء ثم يسير خلفهم؟» فقال: «إن كل من فى سيدى برانى من الموظفين مسلمون، وجيش السنوسى لايعرض لهم بمكروه» فقلت له: «وهل نسيت ما فعل السيد هلال عندما كان يحاول اشعال الثورة فى برانى وارسال أتباعه للهجوم فى كل ليلة على القشلاق» ففكر قليلا ثم أرسل فى استدعاء البكباشى تويدى وأمره بأن يقوم فى الحال بسياراته عائدا فى طريقه الى سيدى برانى ليرافق من تركهم فيها فقلت له انه لن يصل إليهم وقد فات الوقت، ومع ذلك فقد قام تويدى عائدا ولم يمض على قيامه غير أربع ساعات حتى عاد قائلا انه لم ير أثرا لمن خلفهم وعلم أن طلائع الجيش السنوسى وصلت الى سيدى برانى... وفى صباح ٢٥ نوفمبر وصلت طائرتان الى مطار مطروح..

ماذا على أن أفعل؟

إن اشد يوم مر بى فى حياتى هو يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٥، رأيت أن أخلو فيه ساعة لنفسى وجلست أفكر طويلا فى موقفى الدقيق، وماذا يجب على أن أقوم به وليس بجانبى من يبادلنى الرأى. فأنا اليوم الحاكم العسكرى فى مطروح، وهى قاعدة العمليات الحربية ضد السنوسيين وقوادهم الترك، وليس فى مصر كلها ولاهنا فى الصحراء الغربية كلها من يعلم شيئا مما أعلمه من أسرار الجيش السنوسى الذى سيتعرض لهذا الهجوم الانجليزى، أنا الوحيد الذى أعلم بالتفصيل حالة القوة السنوسية من مصادرها، وأعلم أنه جيش لايملك من القوة والعتاد والمؤن والاستعداد للقتال شيئا يستحق التقدير وأعلم الخلاف الشديد الذى بين الامام السنوسى وبين نورى وجعفر، وأعلم أن السيد على حق كل الحق حين يرفض مبادأة الانجليز بجيش يكاد يكون أعزل، وفوق ذلك فإن خلفه فى برقة دولة كبرى هى ايطاليا وهو فى حرب مستمرة مع قواتها، وأعلم أن نورى وجعفر يريدان اقحام الجيش السنوسى فى الحرب مع الانجليز وهما على ثقة تامة من انهما لن

يحققا الهدف الاستراتيجى الذى ترغب فيه استامبول، ولكنهما يريدان بصورة من الصور أن تقول استامبول انهما قاما بحركة ضد الانجليز، وبهذا يتخلصان من الوضع الذى أصبحا فيه، فهما يفضلان هذه المغامرة الطائشة والحركة المذبوحة على الاستمرار فى السلوم هما ومن معهما من الضباط الأتراك بعد أن أصبحوا جميعا يتوجسون خيفة من أن السيد الامام أحمد الشريف السنوسى قد يأمر بالقبض عليهم واعتقالهم فى أى يوم بعد أن تكشفت له الألاعيب.. هذه الحقيقة كنت أعلمها علم اليقين، وان الجيش السنوسى على حالته هذه لن يصمد أمام عدوه الا أياما معدودات وسوف يتمزق شمله. استعرضت فى جلستى هذه الصورة فى خاطرى ثم عدت اسأل نفسى ماذا يجب على أن أفعل فيما يحيط بى. الانجليز مستعدون كل الاستعداد ليسحقوا بقواتهم الضاربة الكتائب السنوسية التى أمامهم وبأسرع ما يمكن، حتى يتفرغوا للميدان الشرقى، أى الجيش التركى القادم من سوريا نحو قنال السويس، وهذا الجيش السنوسى فى تفاهة استعداده، وانقسام قيادته، مغلوب لا محالة، وأعود فاسأل نفسى ماذا يجب على أن أفعله؟

كنا عندما أجتمع بإخوانى الضباط تغلى مراجل حقدنا وغضبنا على الانجليز، وخاصة بعد أن أعلنوا الحماية على مصر، وكنا نتمنى أن تتهيأ فرصة القيام بعمل ضدهم.. والان هل أبقى مع الانجليز، لتأدية ما يطلبونه منى، وأكون عونا لهم فى حربهم؟ ويتبع ذلك انضمام هجانة الحدود من ضباط وجنود الى الجيش الانجليزى، يحاربون فى صفوفه اخوانهم العرب، وتنتشر الدعاية فى العالم كله بأن بنى عمومتنا من العرب بقيادة ضباط عثمانيين موفدين من قبل الخليفة الأعظم لتحرير مصر من الانجليز ووجهوا بجنود مصر يحاربون فى صفوف أعدائهم الانجليز، أو بينما مصر تنتظر جيشا عثمانيا آخر قادما من سوريا بقيادة الخديوى عباس - اى جيش عربى من الغرب وجيش عثمانى قسمه الكلى عرب من الشرق - كل هؤلاء يتقدمون الى الموت لتخليص مصر من أعدائها، ونحن فى صحراء مصر الغربية يكتب علينا أن نقاتل فى صفوف عدو احتل بلادنا، وأذل كبرياءنا، وداس بأقدامه كرامتنا وعزتنا، وأصبحنا نمشى على الأرض كأهون من عليها وكأننا الذين عناهم الشاعر فى قوله:

واعرق خلق الله فى الذل امة

ترى من بنيها للذى سامها جندا

ألا لا كانت الحياة. «ولاعزنى خال ولا ضمنى أب» وبرئت مصر منا وامطرت علينا اللعنات إن رضينا أن نقر الذل فينا، ولبست مصر على أيدينا ثوب الخزى والعار.

انهم اعداؤنا؟

هذه العبارات هى التى جالت فى خاطرى وأنا شاب حينذاك، تغلى مراجل الغضب بين جوانحى ويؤجج الحقد فى قلبى سعيرا. فتمشى الحماسة فى كل شعرة فى جسدى، وتصرخ كل قطرة فى دمى الثورة. الثورة الثورة. فإما الحياة وإما الردى. وهانت الدنيا وما فيها، ورخص الشباب وعوده الأخضر. والمستقبل وما ينتظرنى. وقد استعرضت فى خاطرى على عجل علاقتى بالعمل مع الانجليز، ويشهد اخوانى من الضباط الذين على قيد الحياة، والذين عملوا معى، انى ما تملقت يوما من الأيام رئيسا انجليزيا، ولا استطاع أحد منهم أن يمس كرامتى من بعيد أو قريب، ومع هذا فقد كانت نظرتهم الى عملى نظرة تقدير وتكريم وأحسنوا معاملتى كل الاحسان مع علمهم بتعصبى لوطنى ودينى. وكانت ترقياتى فى غير دورى وشغلت مراكز لم يشغلها مصرى قبلى فى مثل رتبتى، ومع هذا فما نسيت يوما من الأيام انهم اعداؤنا، وانى أشعر بالمذلة والهوان ما دامت بلادى محتلة بهم، وأحمد الله على ان جميع اخوانى من الضباط الذين كانوا فى الصحراء الغربية، كانوا جميعا على قلب رجل واحد. وطنية ورجولة، وكنا نرقب اليوم الذى نساهم فيه للخلاص من عار الاحتلال، فإذا بهم يفاجئوننا بالحماية، والله وحده يعلم ما تركه اعلان هذه الحماية فى قلوبنا ونفوسنا من آلام ضاعفت مرارة الحقد والعداوة فى قلوبنا، فدعوت الله أن يهيئ لنا فرصة الانتقام من أعدائنا.

استعرضت كل هذا سريعا ثم انتهيت الى ان هذه هى الفرصة التى كنا متشوقين اليها، فلم لا أقوم أنا بالثورة، وأؤججها فى الحدود الغربية ثورة باسم مصر، ولتكن ثورة كل استعدادنا وعدتنا فيها ايماننا بالله، وبهذا الوطن، ولتحرقنى نارها فأكون قدلقنت الاعداء درسا يعلمهم الى أى حد يمقتهم المصريون، ويتربصون بهم الدوائر ماداموا يحتلون بلادنا، فأنا المصرى الذى بالغوا فى تقديره، ويقولون ان مستقبلا ملحوظا ينتظرنى لم أتردد فى الخروج عليهم عندما مكنتنى الفرص، فإذا قدر ان ثورتنا لم يكتب لها النجاح الذى نرجوه فأكون على الأقل قد أنقذت سمعة مصر وشرف الجندية المصرية، وأكون قد نزعت من عقول الانجليز ما يشيعونه.. هنا وهناك من ان مصر قد اطمأنت الى ماهى فيه،

وان وطنية أهلها لاتتعدى الكتابة والكلام، وحماسة الخطباء كل هذا مر على خاطرى سريعا. ثم عدت أسائل نفسى من أنا؟ ضابط صغير برتبة يوزباشى عمره ٢٥ سنة قليل التجارب لا يجد بجواره من يتفاوض معه، مطلوب منى فى هذه الساعة أن أقدر الموقف الذى أنا فيه وحدى واصدر قرارا وحدى ثم أنفذه فى هذه الليلة بالذات والا ضاعت الفرصة. وأى قرار؟ قرار الثورة على الانجليز وأنا محاط بجحيمهم وقد ازدحمت مطروح بقوتهم الضاربة التى أعدوها من زمن فتوكلت على الواحد الأحد وأصدرت قرارى فلم يبق مكان للتردد.. الثورة الثورة، ويجب أن أشعل نارها فى هذه الليلة بالذات والله المستعان.

رجولة رجل

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر وبعد هذا القرار تاقت نفسى أن أتحدث الى أى انسان أثق فى اخلاصه وأطمئن الى دينه ورجولته ووطنيته، ورأيت أن هذه الصفات تجتمع فى المرحوم عثمان الدرعى باشكاتب قسم مطروح، وهو رجل جاوز الخمسين من عمره، ولد فى السودان ونشأ فيه، ثم جاء الى مصر وتوظف، فاستدعيته فى بيتى وحدثته عن نفسه وطلبت منه أن يسافر الى القاهرة ويلحق بعائلته وقلت له اننى سأكتب له تصريحا بذلك، فقال لى: «ولكن من يعمل معك فى القسم اذا سافرت أنا؟» فقلت: «الكاتب الثانى والمخزنجى مع كل فأنا لن ابقى هنا» فسألنى: «والى اين تذهب؟» قلت له: «اسمع.. انا لا أطلب منك أن تقسم لأنى مطمئن اليك كل الاطمئنان... أنا قررت أن أخرج فى هذه الليلة من مطروح لاحدث ثورة ضد الانجليز» فبهت الرجل، ثم تمالك نفسه وقال: «هل هذا الكلام جد يا جناب القومندان؟» فقلت: «وهل تعودت منى أن أهذى؟» فسكت قليلا ثم قال: «ثورة ضد بريطانيا العظمى؟!» قلت: «نعم ضد بريطانيا العظمى..» قال «انت ترى انهم فى يوم وليلة ملأوا علينا الدنيا بلاء» قلت: «نعم أرى كل ذلك» فقال: «وتريد أن تثور على هذا الهول (براك)» كلمة سودانية معناها (وحدك) – قلت: «لست (براى) ولكن الله معى» قال: «الله يقول: ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» قلت: «ليست هذه تهلكة، ولكنها جهاد فى سبيل الله والوطن وأنا ما استدعيتك لاخذ رأيك فى قرارى، ولكنى استدعيتك لأنبه عليك لتستعد للسفر الى القاهرة» فسكت ثم رفع رأسه وتكلم وفى صوت الرجل عزم «نعم.. سأستعد للسفر. ولكن للسفر معك حيث تذهب» فقلت له: «أمجنون أنت؟ ما شأنك بهذا وأنت رجل مدنى، وسنك لاتسمح بهذه المخاطرة، وعندك عائلة ليس لها من يعولها غيرك..

سافر، سافر للقاهرة» فراعنى منه انه يقسم بالطلاق بأن لايسافر الى القاهرة، ولابد أن يخرج معى ويقول: «لماذا تريد أن تحرمنى من الجهاد فى سبيل الله والوطن كما تقول؟» فعجبت للشيخ وغضبته وتصميمه، ولم يسعنى الا أن أقول له: «عظيم»... وقمت وصافحته فى حرارة وكأنها مصافحة البيعة على الموت.

وكان والله هذا الرجل فى كل صفحات ثورتنا التى كانت من بدايتها الى نهايتها ابتلاء وحرمانا وكل ما يخطر على البال من شدة وقسوة ومحن وشقاء، كان هذا الرجل رغم سنه، مثلا للرجولة فى أسمى معانيها والصبر فى أمر حالاته، ثم قلت له ان الأمر يجب أن ينفذ فى هذه الليلة، فإذا تأخرنا ضاعت الفرصة ولايعلم الا الله ماذا يكون المصير، فقال: «الأمر اليك، وأنا من هذه الدقيقة جاهز» وصرفته وخلوت لنفسى لأضع الخطة للتنفيذ فى هذه الليلة.. وقد كان.

٩- بداية المعارك العسكرية ضد الإنجليز فى الصحراء الغربية لمصر

دعوة الى الجهاد

لو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان(٣٦) ادخلوا بسلام، وأنا اقولها: (فلو كنت بوابا على باب جنة – لقلت لآل العاصى(٣٧) ادخلوا بسلام).

فطرقناهم فى الليل البهيم فهبوا كراما وعلى رأسهم حميده العاصى وحسين العاصى فرحبوا بمقدمنا أى ترحيب وطربوا أى طرب عندما علموا وجهتنا، وفى الحال نحرت الذبائح وزغردت النساء، ومضت الليلة دون أن تغمض لنا عين وطيروا الخبر بالخيل غربا وشمالا وجنوبا.

دعوة الى الجهاد

وبعد صلاة الصبح جمعت ضباط الصف والعساكر الهجانة ولا علم لأحد منهم بما عزمنا عليه ولكن ربما قدر بعضهم ما كتمناه عنهم عندما رأوا خروج العمدة واستقبال العرب وجموع القبائل التى قدم بعضها قبل أن يطلع الفجر بمجرد أن وصلهم النذير. وقفت بين الجنود وخطبت فيهم وقلت لهم فيما قلت:

لقد عملنا معا زمنا طويلا وكنتم مثلا طيبا فى أداء واجبكم على الوجه الأكمل كنتم قدوة حسنة للمستجدين وذكرى جميلة بين الأهالى فى الصحراء الغربية، وفخرا لسلاحكم

عند كل من يعرفكم أو يرافقكم أو يشاهد ما وصل اليه بتدريبكم، الأمر الذى حمل قيادة الجيش الانجليزى على أن ترسل بعض الضباط ليدربوا عندنا فى الصحراء، والآن أريد أن أطلعكم على ما نويته لقد خرجت من مطروح وتركت مركزى واستغنيت عن وظيفتى واخترت فى سبيل الله وبلادى الدار الاخرى على الدار الفانية. ومنذ ليلة أمس قد بعت لله نفسى، وها أنا لا أدرى ان كانت ستغرب شمس هذا اليوم وأنا حى أو تشرق غدا وأنا حى. وأنا خرجت بكم لأصل الى هنا وقد وصلت والحمد لله وقد رأيتم كيف امتلأ المكان بالرجال ولم تمض الا ساعات قليلة، فجزاكم الله خيرا وأنتم من هذه الساعة احرار فى العودة الى مطروح وأنا أعلم ان لدى كل منكم تبعات ومسئوليات عائلية وما منكم أحد الا وله زوجة وأولاد أو أم وأخوات فعودوا الى مطروح ولن يتخذ الانجليز معكم أى اجراء لأنه لا مسئولية عليكم وأنا المسئول، وانكم لاتعلمون من نيتى شيئا، وحسبتم انها مناورة شدة سريعة حسب المعتاد فى كل ليلة فما راعنى ياسيدى القارئ الا صوت هؤلاء الرجال فى نفس واحد وكأنهم كانوا على اتفاق. لايمكن نرجع ولانرجع أبدا أو لسنا رجالا أو لسنا مسلمين. الرب واحد والعمر واحد والوطن واحد، نعيش معك ونموت معك وليست ارواحنا اغلى من روحك، فلا تطلب منا أن نعود وأهلنا فى وداعة خالقهم وهو رازقهم عند ذلك لم يسعنى الا أن أصافحهم مصافحة هى البيعة على المنشط والمكره فى سبيل الله والوطن (ولقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وطالت سنين الجهاد والاغتراب ومر مذاق الحياة وعز الصبر على الحرمان بكل ما فى الحرمان من ويلات بؤس وشقاء وجوع وعراء وجهاد وابتلاء ولكن الرجال صبروا وصابروا. ولكن المؤمنين أخلصوا النية وأخلصوا الجهاد. فما سمعت فى مدى السنين من أحد منهم شكوى ولا ألما، ولاتوجعا ولاندما، هو الايمان فما أقواه حصنا ومعقلا لا ينفذ منه الى النفوس يأس ولاضعف ولاحسرة ولاخور اللهم لا غالب لنا من الناس ان كنا مؤمنين، فكل من يحاول أن يهدم قلعة هذا الايمان فى نفوس الشباب فهو خائن لبلاده عدو لأمته كافر بنعمة ربه. واليوم الذى يضعف فيه ايمان أمة فقل على عزتها وكرامتها ورجولتها العفاء وقل على وجودها السلام.

حيلة حربية

وأول ما فكرت فيه بعد ذلك هو ان الانجليز اذا اصبح الصباح سيعرفون كل شىء ولابد من أن يجردوا قوة سريعة تقتفى أثرنا وتتعقبنا، علها تستطيع اللحاق بنا وتجعلنا

مثلا لمن تحدثه نفسه بخيانة بريطانيا العظمى والخروج عليها والعبث بفطنة رجالها. فإذن يجب قبل كل شيء أن أقيم وفي سرعة كمينا يعوق تقدم الانجليز اذا حاولوا تعقبنا، ومتى فاجأهم هذا الكمين فانهم سيصرفون النظر عن التقدم ويعتقدون أن هذا الكمين هو جزء من قوة الكشف التعرضي لمقدمة الجيش السنوسي، فيعودوا ادراجهم ليستعدوا لمقابلة هجوم السنوسيين بهجوم يقومون به، وقد سبق ان وصلتهم الاخبار بأن جعفر وصل بجيشه الى سيدى برانى وأن السنوسيين فى طريقهم الى مطروح. ولو علموا حقيقة ما كان عليه جعفر حينذاك وما علمناه فى ليلتنا عن حاله لتقدموا ولأخذوه أسيرا وقتيلا وانتهى أمر الحركة فى يوم واحد ولكن الله سلم.

إن حرص الانجليز الشديد فى تحركاتهم والمبالغة فى الاستعداد واستكمال كل صغيرة وكبيرة كعادتهم فوت عليهم تحقيق غرض ما أرخص الوصول اليه لو اقدموا ولكنهم لن يفعلوا وأنا أعرف فيهم كل ذلك ولهذا كنت واثقا انهم لن يواصلوا مطاردتنا اذا وقعوا فى الكمين، وهذا ما حصل وما علمناه فيما بعد من انهم عندما اكتشفوا خروجى جن جنونهم. وكان، أشدهم هياجا وغضبا وجنونا الأميرالاى اسنو واقترح قيام قوة من الفرسان لتعقبى، ومن شدة حقده ومرارة حنقه، رافق بنفسه هذه القوة، فاذا بالكمين يفاجئهم ويوقع بهم الخسائر، وكانت خسائرهم كبيرة وكان الاميرالاى اسنو أحد القتلى فى هذه المعركة، وارتدوا خائبين ووقع ماقدرته.

بينى وبين جعفر

ولكن الأمر الذى أقلق بالى وبلبل خاطرى وملأ قلبى ألما وحزنا هو ما سمعته فى ليلتى بدوار العاصى من بعض العرب القادمين من سيدى برانى من ان القوة التى جاءت مع السيد جعفر من السلوم كانت خليطا لايمت الى قبيلة بذاتها من قبائل الحرابى ببرقة، ولاهى من الكتائب النظامية التى جهزها الأتراك وكانت تحت قيادتهم وهذا الهجيج المسلح الذى جاء مع جعفر لايعصمهم عاصم من ضبط وربط ولايردهم عن الشر زاجر. وسمعت فى هذه الليلة عن أعمال هؤلاء المفسدين ما أقلقنى كل الاقلاق، فقد جردوا قوة الهجانة التى فى قسم برانى من سلاحهم، واخذوا هجنهم ومتاعهم، كما انتشروا فى نجوع العرب ينهبون ويسلبون. فأظلمت الدنيا فى وجهى، وقررت القيام فى الحال الى سيدى برانى بعد أن نظمت قوة الكمين فى وادى ماجد، وقد ازدحمت دار آل العاصى من الذين هبوا للجهاد

بمجرد أن سمعوا الدعوة. وكنت مسرعا الى الغرب لألتقى بالسيد جعفر لنجعل حدا لهذه الفوضى التى سوف تسبب حربا أهلية، وما أسعد الانجليز لو وقع هذا، فقمت مسرعا ومعى الهجانة وبعض العمد والشيوخ ومشايخ الزوايا السنوسية وزعماء القبائل، قاصدا سيدى برانى لمقابلة جعفر حتى أشرفنا على سيدى برانى فرأينا شراذم من رجال جعفر هنا وهناك فلما رأونا رقدوا على الأرض متحفزين للمقاومة ظنا منهم انها قوة انجليزية جاءت لمهاجمتهم فتقدم من كان معى من مشايخ العرب على خيلهم ولوحوا لهم بأحرمتهم فاطمأنوا وجاءوا لمقابلتنا ولما عرفونا كادوا يطيرون من شدة الفرح. وسألتهم عن جعفر باشا فقالوا انه فى القشلاق دائما ولا يخرج منه لأنه منتظر قدوم الطوابير «الكتائب» من السلوم فواصلت السير ورأيت من واجبى أن أتصرف مع جعفر فى حزم وشدة لأنى عرفته لايهمه إلا أن يرضى هؤلاء الذين يقودهم ليكسب حبهم ولو فعلوا ما فعلوا. وبناء على هذه النية أوقفت الهجانة على بعد نحو كيلو متر من القشلاق خلف هضبة وزودتهم بالتعليمات اللازمة. وأخذت معى المشايخ والزعماء، ومشينا إلى لقاء جعفر فى القشلاق، وما أسرع ما طير رجاله خبر وصولنا وإذا به يقابلنا على باب التكنات وهو فى وسط جمع من ضباطه وجنوده، وكأنه فى سوق، فلما رآنى اقتحم سوقه واحتضننى فى لهفة وشوق وترحيب، ولكن هذا اللقاء الحار لم يمح ألم نفسى ولا المرارة التى ينطوى عليها قلبى بسبب ما أصاب الهجانة وعرب اولاد على من اهانة واعتداء على ايدى رجاله العابثين، فلم أترك له وقتا ليفرغ جعبة التحيات بل أخذناه من يده بعيدا عن هذا الزحام وفاجأته قائلا... قل لى يا باشا.. انت قادم من السلوم لتعلن الحرب على المصريين أم الانجليز؟ فبهت بهذا السؤال وتغير وجهه ثم قال: «اعوذ بالله كيف هذا؟ انا جئت لأحارب المصريين ما هذا الكلام ياصالح بك؟ قلت: إن كنت ما جئت لهذا فكيف تفسر هذه الاعتداءات الفاجرة والأعمال الخسيسة التى قامت بها القوة التى تحت قيادتكم. اعتداءات لايقدم عليها إلا من تجردوا من كل معنى للدين والرجولة والمروءة والأخلاق، اعتداءات لايقدم العدو عليها بل يتورع من اتيانها. ولما سمع ذلك قال لى فى بساطة ماذا حصل؟ أنا لا أفهم سبب هذا الزعل. قلت ان كنت حقيقة لاتعلم سبب ذلك فإن المصيبة أعظم.

ياباشا ألا تعلم أن رجالك جردوا قوة الهجانة من سلاحهم وجمالهم ومتاعهم واستخدموهم مراسلات لضباطك؟ يا باشا ألا تعلم أن رجالك سارحون بلا ضابط ولا

رابط بين نجوع أولاد على ينهبون ويسلبون ويعتدون؟ ألم تسمع كل هذا؟ والعجب أن جعفر عندما سمع ذلك أخذ يقسم بأغلظ الايمان انه لايعرف شيئا مما أقوله ولا سمع به. وأما أنا فلم أعجب لأنه معروف عنه إذا احرج لايبالى أن يدير ظهره الى الصدق، والانجليز يعرفون عنه ذلك ولهم قصص يرويها عنه القائمقام رويل. فقلت له يا باشا لا لزوم لضياع الوقت فى الكلام غير المجدى. نحن خرجنا مما كنا فيه بعد أن هانت هذه الدنيا وما فيها فى أعيننا فبعنا أنفسنا لله وفى سبيله وسبيل وطننا، فلا تظن اننا نرضى الدنية من أحد. أو نسكت عليها وهذه إهانة كبرى لحقت بسلاح الهجانة وهو من أكرم أسلحة مصر على مصر، إهانة من واجب هذا السلاح ان يغسلها بالدم، وانظر هل ترى تلك الهضبة؟ فنظر بالنظارة المعظمة التى يعلقها دائما فى عنقه. قلت له: خلف هذه الهضبة اخوان هؤلاء الهجانة الذين لحقت بهم الاهانة واقسموا صادقين انهم لن يبقى منهم رجل حى الا اذا رأوا اخوانهم كما كانوا فى هيئتهم التى كانوا عليها، وان يوقع عقاب شديد على الذين اعتدوا عليهم. وبينى وبينك ساعة واحدة فانظر ماذا ترى وأقسم انى ما انتهيت من كلامى حتى رأيت الرجل الذى كان قبل برهة يعيش فى فوضى لاتمت الى الجندية من قريب أو بعيد، واذا به تتقمصه روح الجندى الحازم الباسل، وصرخ فهرول اليه كثير من ضباطه وجنوده، وطلب كبار ضباطه فحضروا مسرعين وإذا به يقسم لهم وهو فى حالة انفعال شديد، يقسم بشرفه العسكرى انه إذا مضت ساعة ولم يجمعوا كل ما نهب وسلب من الهجانة فى هذا المكان ليعدم كل من مد يده الى شىء من سلاحهم أو متاعهم أو هجنهم، ولن يفلت منهم أحد، ثم قال: هل تريدون يا «اديسز» قالها بالتركى ومعناها «يا قليل الأدب» ان تكونوا سببا لاعدامى انا بتهمة الخيانة العظمى؟ واذا بهم ينطلقون راكضين يمينا وشمالا، وما مرت ساعة ونصف ساعة حتى كانت الهجن والسلاح والمتاع وكل ما أخذ من جنود الهجانة فى صعيد واحد، وجمعت الهجانة وأخذ كل منهم هجنه، وسلاحه ومتاعه، ثم اصطفوا وسلمت عليهم وسلم عليهم جعفر واعتذر لهم وطيب خاطرهم وأكرمهم، وكان معهم من الضباط المرحوم الملازم أول أمين ذهنى (القائمقام) أسبغ الله عليه رحمته الواسعة والملازم ثانى ابراهيم عوض وسيأتى ذكر بطولته وأخلاقه فى حينها وقد استشهد فى احدى المعارك. والصول عبدالله سعيد.

وانتظمت الوحدة وانضمت الى قوة مطروح، وما إن انتهى جعفر من واجبه هذا حتى صافحنى من جديد وأكثر من الاعتذار، ثم أخذ بيدى وبدأ يقول انت شغلتنى عما هو أهم من أمر الهجانة والذى جعل قدومك فى هذا اليوم نعمة ساقها الله الينا، وفرجا من المحنة التى أعيش فيها، تعال معى الى المكتب لأن الأمر فى غاية الأهمية والخطورة. فذهبنا الى المكتب ونبه بألا يدخل أحد علينا وبدأ حديثه: هل تظن انى موجود هنا بعقلى وتفكيرى لا والله أبدا لاعقل ولاتفكير ولاتدبير (فقلت فى نفسى لاحول ولاقوة الا بالله أهذا رئيس اركان حرب الجيش) بل ان عقلى وتفكيرى فى السلوم والحالة التى خلفتها هناك، فأنا هنا وعقلى هناك فى كل لحظة أنتظر أن يصلنى خبر كارثة كبرى تقع فى السلوم، فلم أشأ أن أسأله أو أقاطعه، وتركته يسترسل فى كلامه فقال: «هل تعلم أنى قمت من السلوم والحالة بيننا وبين سيدى أحمد كأسوأ ما تكون، ولا أستبعد أن يأمر السيد بالقبض على نورى ومن معه من الضباط العثمانيين، فاذا حاول ذلك فثق أن نورى لن يسلم نفسه ولا من معه، وهو عصبى فلن يتردد ولا من معه من الضباط. والجنود الأتراك فى أن يقتلوا من يلاقونه فى طريقهم وكلهم مسلحون ويحملون علاوة على سلاحهم وذخيرتهم قنابل يدوية، والحالة كما صورتها تنذر بخطر شديد وطلقة واحدة من هنا أو هناك تفجر الكارثة، ولهذا ياصديقى صالح أرى من الضرورى وفوق الضرورى وقد ساقك الله إلينا أن تقوم حالا لتنقذ الموقف، عندئذ سألته، وكيف سمحت يا باشا لنفسك أن تنزل من السلوم وتترك الحالة كما وصفتها وهى تنذر بالشر والخطر الذى تؤكده؟ قال: «كان لابد من النزول بعد أن تشاورت مع نورى لكى نؤكد قطع العلاقة مع الانجليز، ونؤيد حركتنا التى بذلنا فى سبيل الوصول إليها كثيرا من التعب» فقلت له وكثيرا من المقالب والحيل، قال صدقت وكثيرا من الحيل، لأنه لم يكن من ذلك بد، وحركتنا هذه لم تتم أيضا إلا بحيلة واسعة سوف تعلم عنها عندما تصل الى السلوم – وهذه هى التى أغضبت السيد أحمد لأنه فوجئ بانسحاب الانجليز من السلوم دون أن يعلم سبب ذلك. فلما علم غضب غضبا شديدا وقال انتم «عملتوها» طيب قوموا وحدكم بها. أما أنا وكل من يتبعنى فلن نشترك معكم، وستعلمون نتيجة فعلتكم وفشلكم المحقق، وبناء عليه تداولت مع نورى، واتفقنا على أن أقوم بأى قوة تكون معى على أن تلحقنى الكتائب النظامية بالترتيب الذى يراه نورى،

ونجعل السيد أمام الأمر الواقع وقبل نورى أن يبقى وليكن بينه وبين السيد مايكون، ثم قال ان تأخيرك دقيقة يا أخى صالح ربما تكون سببا فى الكارثة فعجل بالله عجل والله معك – فقلت له سأعجل بشرط واحد وتعجيل هذا الشرط فى يدك فان لم يتم فتأكد أنى لن أعجل ولن أبرح سيدى برانى أبدا وليكن ما يكون. فقال فى لهفة بالله ماهو هذا الشرط وأنا مستعد لتنفيذه ان كان ذلك فى استطاعتى، فقلت له هو فى استطاعتك اذا حزمت أمرك وهو «لا أدرى إن كنت تعلم أو لاتعلم أن كثيرا من المحافظية وكلمة محافظى معناها جندى» وتطلق على كل محارب فى (الجيش السنوسى) منتشرون ليعيثوا فى هذه المنطقة فسادا واعتداء على أولاد على والمرابطين وكأنما جئت بهم لا ليحاربوا الانجليز بل ليحاربوا عرب مصر يعنى المصريين ومعنى هذا أن تقوم حرب أهلية والمعنى الثانى انك بهذا تقدم أكبر معاونة لانتصار الانجليز بدمائنا ودمائكم فأى خيانة أكبر من هذه الخيانة. فأنا لن أبرح سيدى برانى حتى أطمئن على انك ستضع حدا فى الحال لهذه الفوضى وتضرب بيد من حديد بل تقدم المثل بأن تعدم المحرضين على هذه الاعتداءات والا فإن وطنى يأمرنى بأن أبقى هنا لادافع عن أهله وليخرب السلوم فإن ذلك يأتى فى المرتبة الثانية بالنسبة لواجبى. فلما سمع ذلك أظهر دهشة وكأنه لايعلم شيئا عما هو حاصل، وخرج من المكتب مسرعا ونادى على أركان حربه وجمع ضباطا كثيرين ثم نادانى ووضع أمامه مصحفا وحلف عليه انه لن يتردد فى أن يعدم كل من تسول له نفسه أن يعتدى بأى نوع من الاعتداء على أحد من عرب مصر وانه لن ينام ليلته هذه حتى يمر بنفسه فى كل ناحية ليطمئن على الحالة، وهاهم الضباط يسمعون قسمى هذا. ولست مسلما إذا أنا لم أحافظ عليه – وعند ذلك طلبت منه أن أتكلم للضباط فتكلمت معهم كلاما أظنه ترك الأثر الذى أردته فى نفوسهم، وتسابقوا الى كتاب الله، يقسمون عليه أنهم سيحافظون على الأمن والسلام والنظام بدمائهم، وانهم لن يترددوا فى قتل أى معتد فى الحال بدون محاكمة، وان عرب مصر ماهم الا اخوانهم وبنو عمومتهم، وانهم متكلون على مؤازرتهم ومعاونتهم فى حرب الانكليز، وانهم بدون هذه المعاونة الأخوية فى سبيل الله فلن تفلح حركتهم ولن ينتصروا على العدو.

دموع طيعة

ولما انتهى الاجتماع، الى هذه النتيجة عاد جعفر يأخذ بيدى الى المكتب ويضرع الى

وقد سالت دموعه، والعجيب أن جعفر هذا لاشك فى شجاعته وبطولته واقدامه، ولكنه يملك دموعه بشكل عجيب، ويستطيع أن يقول لها سيلى فتسيل.

بعد أن اطمأننت بعض الاطمئنان وخلفت ورائى من يكتب لى كل يوم مع مخصوص بالحالة – قمت ومعى الهجانة وكثير من عمد ومشايخ أولاد على وزعمائها ومشايخ الزوايا ميمما السلوم بأقصى سرعة للهجن، ولم أقف حتى وصلت بقبق(٣٨) لأعطى الجمال راحتها، والجنود طعامهم – وما مضت على نزولنا ساعة حتى وصلت الكتائب النظامية التى قال عنها جعفر فى حديثه «برنجى نومونة» بقيادة اليوزباشى التركى أمين (وايكنجى نومونه) بقيادة اليوزباشى التركى غالب «وكل منهما منح رتبة البكباشى الوقتية فى الجيش السنوسى» وبعد التحية والسلام والسرور المتبادل والغبطة التى غمرتهم وغمرتنا بهذا اللقاء. أسرعت فى سؤالهم كيف الحالة فى السلوم؟. فقالوا فى نفس واحد بطالة خالص خالص، والله ربنا جابك يا صالح (بك) وإن شاء الله تصل باكر وتصلح بين السيد ونورى، وإلا كلنا رايحين فى داهية لأن السيد مصمم على ألا ينزل من السلوم، وسيتوجه الى الغرب، وعلى ذلك ستفقد الحركة روحها وسوف يتشتت العسكر ليلحقوا بالسيد حيث يكون. فسألتهم مادمتم تنظرون هذا المصير فلماذا جئتم من السلوم؟ قالوا قدرنا ان السيد ربما بعد أن يرى أن الحركة صارت جدية قد يغير فكره، وأقنعنا العساكر بأننا سننتظر حضور السيد فى سيدى برانى ولانتحرك إلا إذا حضر. واسمع ياسيدى القارئ لهذه الغارة الجنونية التى بذل نورى وجعفر فى سبيلها كل ما وسعهم من حيل وتضليل، واستعذبوا هذه الالاعيب وسخروا فى سبيلها كل ما استطاعوا ولم يقيموا وزنا حتى لغضب السيد الامام السنوسى وهو روح الحركة وفقار ظهر وعماد أمرها، ثم هل تصدقون بعد هذا كله ان هذه الكتائب التى وصلت ليس لديها ولا لدى ضباطها (ولا قادتها أمين وغالب) نظام اعاشه وتموين فاضطررنا أن نعطيهم مما عندنا طعام ليلتهم – يكفى هذا دليلا على العبث وأى عبث... إنها مهزلة قذرة مرذولة تمثل حركة عسكرية تريد أن تحقق هدفا استراتيجيا عظيما. يتوقف على نجاحه هزيمة الانجليز وخروجهم من مصر، فيا لسخرية القدر.

عندما أدركت لماذا انفرط نظام الجنود فى سيدى برانى، انفرط بلا شك طلبا للقوت وحسبنا الله ونعم الوكيل – والسيد الامام مقدر كل هذا ولذا كان يرفض الحركة وقد قال

لى فى حديثه معى عند زيارته الأولى للسلوم أن نورى وجعفر لم يعدا أى عدة ولم يقوما بأى استعداد للحركة التى يسبحون بها فى الليل والنهار، وانا أعلم انه لاسلاح ولا ذخيرة تذكر ولا مؤونة ولاشىء من اللوازم الأخرى وان التموين اليومى إنما هو من سوق السلوم، والفضل فى وجوده للانجليز. فاذا فقدناه فقدنا معه قوتنا اليومى فأى معنى لهذه الحركة التى لايخجلون من ذكرها والرغبة فيها والاصرار عليها؟ وقد صدق السيد الامام وافتضح أمر العابثين من أول يوم للحركة.

ولما استرحنا قليلا قمنا فى الليل الى السلوم فوصلنا فى الصباح الباكر الى ميناء السلوم، وبمجرد وصولنا بعثت خبرا للسيد الامام بوصولنا، واننا سنصعد الى معسكره، بعد أن يصلى الضحى، وصعدنا فى الميعاد وقد تسامع المعسكر بقدومنا، فكان استقبال وأى استقبال ولقاء وكانت فرحة السيد الامام أحمد السنوسى رضى الله عنه وأرضاه فرحة اثلجت صدورتنا، ولا أظن أن أحدا شهد هذا اللقاء، يمكن ان ينسى ذلك أبدا. واما نورى باشا فكان كرجل حكم عليه بالاعدام وينتظر التنفيذ بين ساعة وأخرى، ثم يسمع أن صدور العفو عنه بات قريبا.. ماذا تكون حاله؟ ذاك نورى عندما قابلته ولامبالغة فى هذا الاستقبال من هنا ومن هناك ولايزال الكثيرون ممن شهدوه أحياء يرزقون. والواقع أن التوتر الذى كان يعيش فيه معسكر مساعد والذى ينذر بالانفجار فى أى ساعة من ساعات الليل والنهار، وشعور كل من فيه بالخطر يحيط بهم من كل ناحية، وغضب سيادة السيد الامام على العبث الذى سوف يسوق الى كوارث تحيق بجيشه ويذهب ضحيتها رجال أبطال، لا ليحققوا غاية ولاليصلوا الى هدف ولكن ليقال عن نورى وجعفر انهما قاما بحركة وهما يعلمان انها حركة مذبوحة لانهما لم يعدا لها أى عدة، حركة أقل ما توصف به انها لعب فى لعب والا فقل لى بربك أيها القارئ الكريم أى جيش هذا الذى يساق الى المعركة بل ويساق الى ميدان فقد يطول أمد القتال فيه وهو لايملك تموين يومه؟

وما استرحنا قليلا حتى طلبنى سيادة السيد الامام فى جلسة خاصة، وبعد الترحيب تكلم والأسى يبدو فى كل حركة ونفس وهو يتكلم قال: «أرأيت كيف لعب بى هولاء ، ثم أرأيت الى أى مصير يسوقونا وماذا تكون نتيجة هذا الجنون وما أوصلونا اليه؟» فسألته هل حصل ما حصل دون علمه وبغير مشورته؟ فقال: نعم لم أعلم بشىء أبدا حتى قيل لى ان الطوافة عبدالمنعم اقلعت بجميع الضباط الانجليز والقوة المصرية التى كانت فى قشلاق

السلوم بل أقلعت بغتة لأنها تركت خيامها والكثير من عتادها فقلت وكيف ذلك؟ فقال عندما حققنا علمنا أن جعفر لعب آخر لعبة عنده وهو انه كان يعرف جواسيس الانجليز الذين كانوا يرتادون معسكرنا المفتوح كما تعلم لكل غاد ورائح، فجاء باثنين ممن يثق الانجليز بأخبارهم وأغراهما بالمال وأعطى كلا منهما مالا كثيرا وقال لهما: «لا أريد منكما الا ان تنقلا الى الانجليز ان الترك والسيد اتفقوا نهائيا على الحركة باكر، وأن جميع القوة الآن فى هذا المعسكر او قريبة منه، حتى طابور «بير واعر» وهو أكبر الكتائب عددا واحسنها تدريبا بقيادة يوزباشى «صاغ» نديم فى طريقها وسيصل هذه الليلة الى هنا لا أريد منكم أكثر من ذلك ولكما منا بعد نجاح تبليغكما مكافأة أكبر مما أخذتما، ففرح الجاسوسان وما كان منهما الا أن هرولا وكانت الشمس قد قاربت الغروب وابلغا الأميرالاى اسنو بذلك، ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد بل أرادوا أن يؤكدوا للانجليز ما نقله اليهم جواسيسهم فقاموا فى ليلتهم بمناورة للمدفعية بقرب قشلاق السلوم وفوق الهضبة المشرفة على الميناء، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا جماعة كبيرة من طابور برنجي نمونة فنزلوا حيث كانت بالمعسكر القوة الصغيرة من الهجانة بقرب الميناء للمحافظة على مخيم الضباط الانجليز، وكانت تحت قيادة المرحوم الملازم أول «الصاغ محمود لبيب»(٣٩) أجزل الله ثوابه على جهاده. أقنعوه بأن يصعد معهم ومع رجاله وجماله الى معسكر مساعد، لأن الحركة ستبدأ فى الصباح الباكر ولايليق بمسلم أن يبقى مع هؤلاء الانجليز فصعد معهم، وبات الانجليز بعد خبر الجواسيس فى وجل لاتغمض لهم عين من هجوم السنوسيين عليهم صباح غد وأكدت تلك المناورة التى رتبها جعفر فوق هضبة السلوم الخبر، فلما أصبحوا طلب اسنو الملازم محمود لبيب فلم يجده، ولا الهجانة، فكان هذا آخر انذار بأن الهجوم عليهم واقع لا محالة بين دقيقة وأخرى، ففى الحال أمر اسنو بالرحيل، وأمر الجنود المصريين الذين بالقشلاق بالنزول على عجل، فنزلوا وتخلف بعضهم لأنه كان خارج القشلاق كما تخلف ضابط أيضا ولما أرادوا ان يلحقوا بإخوانهم وجدوا الطوافة عبدالمنعم قد اقلعت وترك الانجليز فى معسكرهم كل متاعهم ونجوا كما قالوا من الاسر أو القتل.

الموقف ينكشف

هذا ما رواه السيد الامام بعد أن تجمعت لديه المعلومات التى أعجلت الانجليز وحملتهم على مغادرة السلوم بهذه السرعة دون الرجوع اليهم «انتهت الرواية» ثم واصل السيد

الامام حديثه فقال: «أرأيت هذه المهزلة التى كانت خاتمة المهازل التى قام بها هؤلاء الضالون المضلون وحسبى الله ونعم الوكيل فيهم».

وانظر اى بلاء جرونا اليه دون أن يحققوا لدولتهم غاية أو يتقوا الله فى أبناء هذا الوطن الذين أصبحوا بين عدوين من خلفهم عدو هو الطليان ومن أمامهم عدو هو الانجليز، ولكنى عزمت ألا أطاوعهم ولا أنقاد الى عبثهم وسوف أرسل الى الذين خدعوهم من المجاهدين وساقوهم معهم الى الحدود المصرية الى العودة وإلا فهم عصاة، ولن يريحوا وسيرى نورى وجعفر بعد ذلك ماذا يكون مصيرهم؟

ولما انتهى السيد من ذلك قال لى: وانت ما الذى جاء بك فى هذه الظروف ولو ان مجيئك خفف عنى آلاما وأعباء ثقيلة كنت أشعر بها وأظنك رأيت فرحتى بقدومك. وقلت له: اسمع منى يا سيدى، أظن سيادتك تعرف تماما انى أنا الوحيد من المصريين الذين يعرفون حقيقة حالكم، وما أنتم عليه، فقال نعم نعم لا شك فى ذلك. ثم قلت وأعلم حالة الانجليز وما هم عليه ودرجة استعدادهم لمحاربتكم بعد أن بذلوا ما بذلوا ليتجنبوا حربكم، قال نعم صبروا كثيرا وتحملوا كثيرا من لعب نورى وجعفر، ثم قلت لسيادته: ان من يعرف كل هذا لايخاطر هذه المخاطرة ويأتى اليكم إلا إذا كان هناك ضرورة تدعو اليها وتهون معها كل مخاطرة، فهز رأسه ثم قلت له: دعنى يا سيدى أتكلم عن الوضع الذى أصبحتهم فيه أنتم شخصيا، فأنصت، فقلت لا أزيدك علما ياسيدى اذا قلت ان العالم الاسلامى كله ينظر اليكم، اليوم نظرة اجلال واكبار بعد هذه المواقف الخالدة والجهاد المرير ضد الطليان، وما أظهرته ليبيا من بطولة خارقة وايمان عريق أذهل الاعداء وأثلج صدور المؤمنين وأصبح اسمكم على كل لسان وذكركم فى العالم حديث الناس أجمعين – وأظنكم تعلمون علم اليقين أن مصر فى مقدمة المحبين والمقدرين والمعجبين بكم وان على أيديكم سيكون نصر المسلمين، وكما لا يخفى عليكم ان مصر ساهمت بالنصيب الوافر فى نجاح الحرب فى برقة وقدمت كل ما استطاعت فى هذا السبيل، قال: ومن ينكر هذا؟ والله لاينكر ذلك إلا كافر وهل كنا نستطيع شيئا لولا نجدة مصر وموقف مصر وعون مصر؟ والله لولاها ما كنا شيئا ولا استطعنا شيئا– قلت: عظيم مصر هذه تنتظر منكم أو هكذا جعلتها رعاية الدولة العثمانية أن تنتظر منكم المساهمة الجدية فى إنهاء الاحتلال الذى أصبح حماية وتخليصها من هذا البلاء، ومصر على بكرة أبيها تنتظر الفرج من الشرق

بقدوم جيش على رأسه الخديوى، وتنتظر الفرج من الغرب بقدوم جيش انتم على رأسه ويقوى هذا الأمل ويضاعفه تلك البطولة التى تجلت فى كفاح عرب برقة ضد الطليان، والذى بعث فى المصريين نارا تنتظر موقدا وحقدا مرا ضد الانجليز. ينتظر مخرجا لتساهم مع جيش الشرق والغرب فى ثورة داخلية تربك الانجليز وتشل حركتهم وهى تعد الايام مترقبة هذا اليوم الذى تنفجر فيه مراجلها وتثأر فيه لعزتها وكرامتها وحريتها من احتلال طال أمده وثقل حمله - وقلت: هل ما قلته ياسيدى واضح، قال: نعم واضح وأنا منصت لكل كلمة تقولها، قلت: مصر هذه ياسيدى التى يحدوها الأمل ويحفزها الرجاء لاتعرف قليلا ولا كثيرا مما أنتم فيه من سوء حال وعبث العابثين ولاتعرف إلا أن الغواصات الألمانية لاينقطع مددها لجيشكم بالسلاح والعتاد والمؤن ليوم الهجوم، وأن خليفة المسلمين ودولته العلية لاتغفل ليلها ولانهارها عن الحث لاستكمال هذا الاستعداد وإرسال الضباط والجنود المدربين على استعمال الأسلحة الثقيلة هذه هى الدعاية أو ماينسجه الخيال فى عقول المصريين والمتحمسين ليوم القتال. فإذا جئت أنت اليوم يا سيدى ووقفت موقف المعارض لهذا الهجوم والمانع له والتحدى للشارعين فيه والذين فى استطاعتهم او فى استطاعة دولتهم ان يملأوا الدنيا دعاية كلها كذب، والدولة نفسها ربما كانت مخدوعة فى هذه الدعاية بسبب هؤلاء الضالين المضلين من رجالها الذين أوفدتهم اليكم اذ قالوا للعالم الاسلامى عامة ولمصر خاصة انظروا كيف وقف السيد السنوسى معارضا الهجوم على الانجليز بعد ان أتممنا استعدادنا وهيأنا انفسنا واتكلنا على السيد السنوسى فى العمل على انجاح الهجوم الكبير للجيش القادم من الشرق فأفسد علينا خطتنا التى تعبنا فيها وأنفقنا الشهور الطويلة فى تجهيزها ليبرئوا انفسهم بهذه الدعاية الخبيثة وليظهرونكم ياسيدى امام العالمين بموالاتكم للإنجليز والسعى لفشل الهجوم وخذلان مصر، والله يعلم أنهم هم المجرمون المضللون الكاذبون على الله والناس ولكن ما الحيلة بعد ذلك؟

هذا ما أردت أن أوضحه لكم لتروا رأيكم فيه والله قادر على أن يلبسهم ثوب الخزى الذى نسجته أيديهم وان يطهركم تطهيرا وينصركم عليهم نصرا عزيزا إن شاء الله. ويشهد العالم وتشهد مصر أنكم لم تقصروا فى سبيلها وأنتم رغم الحرمان الشامل والعجز القاتل بذلتم ما فوق الطاقة وحاربتم بالإيمان الصادق واليقين الثابت وسالت دماء

عرب برقة طاهرة زكية على أرض مصر، وفاء لحقها واعترافا بفضلها، ومساهمة فى خلاصها - هذا ما أراه وأوضحته صادقا مخلصا والأمر اليكم فانظروا ماذا ترون. فصمت السيد الامام مطرقا وطال صمته ثم رفع رأسه وقال «اللهم لا حول ولاقوة إلا بك والأمر اليك وأنت تعلم ما نحن فيه، والله يا ولدى إننا إذا حاربنا قدمنا أبناءنا ضحية لألاعيب نورى وجعفر دون فائدة واما إذا امتنعنا عن الحرب لحقنا عار ما ينشرونه كذبا وبهتانا وحملونا أمام العالم الاسلامى ومصر والمصريين وزر ما صنعته أيديهم الخبيثة، هما أمران أحلاهما مر «والى الله المشتكى فقلت: يا سيدى الامام لن يخذلك الله أبدا، ولن تغلب والله ناصرك، فتوكل على الله وأقدم، فقال: ان شاء الله.. اتركنى وعد الى بعد ساعة لأقول لك قرارى النهائى ولن يخرج إن شاء الله عن نصيحتك فقلت له: أرجو أن تسمحوا لى بأن أقضى هذه الساعة مع نورى أتكلم معه فيها وأبين له ما وصلنا اليه. فقال حسن. تكلم معه وبين له فضائحهم، فخرجت من عند الإمام على أن أعود اليه بعد ساعة.

مع نورى

وما إن خرجت من حضرة السيد حتى قابلنى من كان ينتظر خروجى من قبل نورى وقال: الباشا ينتظرك فى خيمته فأرجو أن تذهب اليه لأنه يريد مقابلتك ضرورى. فقصدت خيمة نورى.

استقبلنى فى لهفة وشوق. وجلسنا ثم قال لى: «لقد طالت مقابلتك لسيدى أحمد، إن شاء الله خير، فقلت له: وهل أنا قادم لأقنعه بذلك وهو أعلم منى الف مرة بكل ما له علاقة بهذه الحركة وفائدتها أو عدم فائدتها؟.. قلت له دعنى ياباشا من اقناع السيد بالحركة وعدم الحركة أنا أريد أن أسألك بشرفك العسكرى. هل أنت مقتنع بأن هذه الحركة وقد شرعتم فيها فعلا ستحقق الهدف الذى ترجوه منكم استامبول؟.. وبشرفك العسكرى مرة ثانية هل تعتقد أن جيشا لا يملك مؤنة يومه يستطيع أن يحقق شيئا؟.. أم انها مجرد حركة مذبوحة لتقولوا لاستامبول أنكم تحركتم. وليكن بعد ذلك ما يكون؟ فسكت وظهر الألم على وجهه وحركات يديه.. وعدت أقول له: اسمع ياباشا.. ان ما أقدمتم عليه لايرضاه الله ولاترضاه استامبول ولايرضاه الضمير العسكرى ولايخلد الا أسوأ الذكريات، ولا يأتى الا بهزيمة محققة وفضيحة للدولة العثمانية وكارثة تنزل بهؤلاء المجاهدين وبلادهم التى تقابل عدوا «هو دولة من الست دول الكبرى» هى ايطاليا. وبلادهم أحوج ما تكون الى كل قطرة من دمائهم فى سبيلها سوف تسيل هذه الدماء على أرض مصر دون أن نحقق

شيئا يذكر، وانا قادم ومعى من معى من جنود مصر وزعمائها وزعماء قبائلها، وانا أعلم انى قادم لأشترك فى الموت مع هؤلاء الذين تسوقونهم الى الذبح، ومن خلفى آلاف من أولاد على والمرابطين، وكلهم مستعد لأن يموت أيضا مع هؤلاء وهم لايملكون شيئا من السلاح يذكر، ظنا منهم انهم سيجدون عندكم الكفاية منه، فهل يليق هذا باسم الدولة العلية؟ فقال ياصالح بك هذا جهاد فى سبيل الله بأمر الخليفة والدولة العلية نفسها يموت كل يوم من أبنائها الألوف فى هذا السبيل، فماذا لو مات المسلمون فى حربهم مع أعداء الخلافة؟ قلت. حسنا يموتون ويجب أن يموتوا على شرط أن يكون لهم فى موتهم ما يعود بنفع على الخلافة، وبشرط أن تستكمل الخلافة إعدادهم واستعدادهم.. «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» فأية قوة أعددتموها أنتم باسم الخلافة والخليفة؟.. وهل أبناؤكم فى تركيا يساقون للموت فى الميادين بغير تموين ولاتسليح ولاخدمات خلفية من أى نوع؟ هل فى العالم الذى نعيش فيه اليوم يتقدم جيش الى الميدان على الصورة التى تدفعون بها هؤلاء المجاهدين الى القتال، والانجليز وانتم تعلمون من هم وما استعدادهم؟.. لا ياباشا؟.. اسمح لى أن أقول لك هذا كلام أبعد ما يكون عن تقدير المسئولية، أو تقدير الموقف وما سوف يترتب عليه من حركة فاشلة وهذه تجريدة لم يتوفر لها أى نوع مما يجب من التجهيز. ثم سكت، فقال نورى «فى الحقيقة ان وزارة الحربية، بل الحكومة كلها فى استامبول مشغولة ومضطربة بالنسبة لهجوم الانجليز على الدردنيل وان كل مجهود الباشا، «يقصد أخاه أنور باشا» متجه الى حماية الدردنيل وحماية استامبول من أن يستولى عليها العدو لأن فى استيلائه عليها لايبقى لتركيا الا التسليم هذه هى المشغولية التى لاتدع لهم تفكيرا فى ميدان آخر. فقلت له: وماذنب السنوسى فى هذا؟ فقال: أنا لا أقول أن عليه ذنبا. قلت: «اذن لماذا كنتم توجهون اليه اللوم. فى الماضى؟ والآن وبعد أن شرعتم فى الحركة لازلتم تريدون تحميله مسئولية تأخير الحركة وعدم موافقته على الاشتراك فيها، وانت لاتستطيع ان تنكر الآن أن له كل الصواب إذا رفض ان يتقدم لمحاربة عدو يعلم قوته وهو مجرد من كثير؟ فقال لى ياصالح «بك» انت خدمت الحرب فى برقة خدمات عظيمة «والباشا» «أنور باشا» يذكرها لك فى كل مناسبة ويقول: لولا مجهودك ومجهود اخوانك الضباط المصريين لما استطاع أن يقف امام الطليان ويحاربهم وينتصر عليهم.

والآن أنا أرجوك والموقف كما ترى فى غاية الصعوبة.. واصرار السيد على عدم الحركة يعرضنا لمصيبة عظمى ويعرض القوات التى انحدرت الى الحدود المصرية الى أشد البلاء، فأرجوك «وقام ومسك يدى» أن تعمل كل مايمكنك لتقنع السيد بأن يشترك معنا ونحن واثقون اننا ببركته سوف «نوفق» والحقيقة أنا الآن بين نارين: استامبول وقد كتبت لها كثيرا لأجل الاستعداد ولم تساعد كما يجب وتطلب منا ان نعمل شيئا نشغل به الانجليز قبل ان يدخل جمال مصر من الشرق. وعلمنا ان استامبول صرفت النظر عن الخديو، وأن نسبق جمالا اذا امكن فى التسلل الى مصر. «وعلمت فيما بعد المنافسة الشديدة التى كانت بين أنور باشا وجمال على دخول مصر وهذه حكاية أخرى ربما يأتى يومها كما تأتى حكاية ابعاد الخديو عباس عن قيادة جيش «الشرق» والنار الثانية هى غضب السيد وامتناعه عن الحركة ولانعرف ماذا يكون مصيرنا. فأنا أمامك أقول انى حملت نفسى مالا طاقة لى به فكان الواجب على أن أعود فى غواصة الى استامبول وأقول للباشا أنا لا أستطيع أن أتحمل مسئولية حركة بغير استعداد لها، وان السيد السنوسى له كل الحق فى أن يمتنع عن الحركة، ولكنى لم أفعل وهذه غلطتى وغلطة كبرى سببت لى كل ما أنا فيه، والآن ليس أمامى غيرك ولا أحد يصلح بينى وبين السيد سواك، وأنا مستعد أن أتقدم للسيد بكل أنواع الاعتذار وأطلب عفوه وصفحه، فاعمل معروف - وكررها فى حديثه مرة ومرات - أصلح بيننا لنعرف مصيرنا. فقلت له: سأعود اليه وأحاول، والله ولى التوفيق.

الامام يشترط

وخرجت من عنده وكان مضى أكثر من ساعة وبعث سيادة السيد الامام يدعونى اليه، فدخلت وذكرت لسيادته كل ما دار بينى وبين نورى، وقلت فى النهاية: والأمر اليك ولا أقول أكثر مما قلت، غير اننا وصلنا الى حالة يجب أن نجعل لها حدا، وكل ساعة تمر تجلب علينا الويلات.

وكان قد بلغ السيد فى الليلة الماضية أن قوة من سوارى الانجليز أرسلت لتتعقبنى ومنها الأميرالاى اسنو وفوجئت بالكمين الذى أقمناه فى وادى ماجد واصطدموا به وكانت خسائرهم كبيرة، وقتل فى هذه المعركة الاميرالاى اسنو وكانت خسائر المجاهدين قليلة.

عند ذلك قال لى سيادة السيد الامام «أنا سأقبل وساطتك فى الحركة ولكن بشرط أن

يكتب نورى اقرارا بأنى كنت على حق عندما تشبثت بتأخير الحركة للعجز الشائن فى استعدادنا وها هم الآن قد تحركوا بغير إذنى وبدون أن يكملوا استعدادهم. وبعد أن يكتب هذا ويقدمه لى سأوافق على الحركة وأشترك فيها مع علمى بفشلها، والله المستعان وهو ولى التوفيق، وبدون هذا الشرط لن أتحرك، فاستأذنت من السيد وذهبت الى نورى وأبلغته الشرط الذى يطلبه السيد لكى يوافق على الحركة ويشترك فيها فوافق وكتب ما أراده السيد وأخذته مع اقراره وتوجهنا الى السيد الامام، وقبل رأسه ويديه وركبتيه، واعتذر بكل كلمة عربية يعرفها، وما كان من السيد الا أن قال: عفا الله عما سلف، ونسأل الله ان يتقبل جهادنا، وأن يكون فى سبيله وفى مرضاته. وغدا إن شاء الله نتوكل على الله ونبدأ حركتنا - ولاتسل ياسيدى القارئ عن سرورى بهذه النتيجة. وما سمعها المعسكر حتى دوت زغاريد النساء وفرحة المجاهدين التى لاتوصف لأن التوتر الذى كانوا فيه كان على أشده. وأقض المضاجع وشرد النوم وصير الحياة جحيما فى المعسكر واشتغل بعد ذلك كل انسان بتجهيز نفسه وفى الصباح الباكر وبعد الصلاة جماعة، والدعاء والتوسل: يممنا شطر الحدود المصرية لنلقى العدو «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» وباسم الله والله أكبر فقد بدأت الحرب فى سبيل الله ومصر.

لاشك ان السادة القراء سيتساءلون كيف استطاع الجيش السنوسى أن يحارب بغير تموين؟ نعم. وجد الجيش تموينه ولكن كيف وأين وجده؟ جرت عادة العرب فى صحراء مصر الغربية أن يختزنوا جزءا من محصول عامهم من الشعير ليكون من تقاوى العام المقبل ولحسن الحظ كانت السنة خصبة والمطر غزيرا والشعير المخزون منه وافر وقررنا قبل حركة القسم الكلى من الجيش السنوسى الباسل من السلوم الى حدود مصر - أقول الجيش الباسل بحق. الجيش الذى كان صورة صادقة ناطقة لما قرأنا عن المجاهدين فى الصدر الأول من الاسلام الذين جاهدوا لحماية العقيدة من اعدائها وفتحوا ما فتحوا. الجيش الذى وصف رجاله حينذاك بأنهم يرغبون فى الموت رغبة أعدائهم فى الحياة هم هؤلاء المجاهدون من قبائل برقة والذين يتكون منهم الجيش السنوسى والذين امتحنوا الصبر ولم يمتحنهم وآمن بهم الإيمان بعد أن آمنوا به فرضى الله عن شهدائهم وأجزل الثواب للاحياء منهم.

رأينا أن يسبق حركة الجيش خطاب يقوم به مخصوص على عجل يكتبه نورى باشا الى

جعفر باشا يطلب فيه أن يتفق مع عرب أولاد على والمرابطين لكى يقدموا ما يلزم لتموين الجيش بطريقة منظمة بحيث يبقى لديهم ما يلزمهم من التقاوى وان تعطى لهم ايصالات بقيمة ما يؤخذ منهم للمحاسبة عليه فى المستقبل وفلا تم تنظيم التموين على هذه الصورة ولو انه لم يبق التموين على شيء من التقاوى ولكن العرب الكرام رفضوا فى إباء أن يأخذوا ايصالات بما يقدمونه من الشعير أو الماشية وقالوا هذا حق الله نقدمه لأبناء عمومتنا المجاهدين الذين جاءوا لنصرتنا فهم ضيوفنا ما داموا فى أرض مصر وسنحارب معا ونقتسم اللقمة الواحدة معا والله لا نأخذ ايصالا على ما نقدمه فى سبيل الله والوطن. ومن باع نفسه فى سبيلهما لايبخل بعرض الدنيا الفانية. هؤلاء الامجاد هم عمد ومشايخ وشيوخ زوايا زعماء القبائل وعقلائها قبض الانكليز على كثير منهم بعد معركة العقاقير وحاكموهم وحكم عليهم بالاشغال الشاقة لاشتراكهم فى الحرب وزجوا بهم فى ليمانى طرة وأبوزعبل مكبلين بالأغلال ولم يرحموا حتى الشيوخ منهم ولكنهم صبروا صبر الكرام على الأذى والأشغال الشاقة ولم يخرجهم من العذاب الا صدور العفو الشامل فى سنة ١٩٢٣. هؤلاء هم الجنود المجهولون الذين لاتعرف مصر عنهم شيئا والذين جاهدوا فى الله والوطن حق الجهاد ونزل بهم ما نزل فلم يضجوا مما أصابهم كما لم يباهوا ولم يفاخروا ولم يقولوا قدمنا وبذلنا وضحينا وخسرنا بل سكتوا سكوت المؤمنين راضين مطمئنين لرضاء الله عنهم واحتسبوا كل ما فعلوا عند رب العالمين وهكذا يكون الجهاد فى الله ولله فى الوطن وللوطن ونعم أجر الصابرين. هذا ما انتهى اليه نظام التموين فى المنطقة الساحلية.

ولكن بعد ان استمرت الحرب مع الانجليز فى المنطقة الشمالية مدة رئى بعد عقد مجلس حرب وجوب قيام قوة الى الجنوب من أربعة آلاف مقاتل لتشغل الواحات وعينت قائدا عليها - وبعد أن وصلنا الى واحة سيوة زحفنا وشغلنا الواحات البحرية والفرافرة والداخلة. أما الواحات الخارجة والداخلة فإن الانجليز بمجرد أن علموا بتقدمنا الى الواحات أسرعوا واحتلوا الخارجة ولم نجد صعوبة فى تأمين تموين القوة التى شغلت الواحات لوجود البلح بكثرة فى سيوية والبحرية وأما الداخلة فقد قدمت البلح وغيره مما تزرعه وأظهر سكان الواحات من علو الهمة وسخاء النفوس شيئا كبيرا أما واحة سيوة فقد قدمت مع التموين كتيبة من أبنائها كانوا رجالا ونعم الرجال فى الوقت العصيب وشدة البأس. أجزل الله ثواب الجميع فى الدارين.

١٠- رئاستى لجمعية الشبان المسلمين

ولد فى أسوان بجهة السونقراب عام ١٨٨٦م(٤٠) وتلقى تعليمه الأولى فى كتاب الشيخ أبوزهران، وكان يهتم به كثيرا ويعجب بمتانة حفظه للقرآن الكريم.

ثم ترك الكتاب الى المدرسة الابتدائية الاميرية بأسوان وأتم فيها دراسته الابتدائية، ثم سافر الى القاهرة والتحق بمدرسة العباسية الثانوية وأتم دراسته عام ١٩٠١.

وقد عرف عنه حبه للرياضة والنشاط والقوة ودفعه ذلك الى الالتحاق بالمدرسة الحربية، ولكن المدرسة الحربية فى تلك الفترة امتنعت عن قبول طلاب جدد بها بسبب الانتهاء من فتح السودان وعدم الحاجة الى ضباط جدد، وكان باشجاويش المدرسة الحربية وقتذاك «مصطفى زهدى» والجاويش «على حسنى» و«على عبدالوهاب» والأومباشى «عبد الحيمد برادة وحسين فوزى» واثنين سودانيين، يوسف شاهين وطالب آخر..

فى مدرسة السواحل

يقول السيد اللواء صالح حرب:

واقترح هنتر باشا مستشار وزارة الداخلية الانجليزى أن ألتحق بمدرسة السواحل، وكان معى ستة طلاب آخرين، ودخلنا السواحل ومعنا أولئك الطلاب، وأمضيت مع زملائى مدة الدراسة وهى عامان وتخرجت بعدها فى سنة ١٩٠٣.

وبعد أن تخرج صالح حرب عين فى وظيفة ضابط حدود بخفر السواحل برتبة ملازم ثان.

وكان صالح حرب هو الضابط الوحيد الذى رقى الى درجة قومندان بقسم الضبعة وهو ملازم أول، وهى تعادل فى الدرجة والمسئولية رتبة المقدم الانجليزى.

وفى سنة ١٩٠٦ رقى الى رتبة نقيب وصار قومندانا لقسم مرسى مطروح بعد «روبل بك» وهى تعادل وظيفة محافظ الصحراء الغربية.

وقد عين صالح حرب وكيلا لمصلحة السجون عام ١٩٣٠ وما بعدها، وحينما ألف على ماهر الوزارة سنة ١٩٣٩ أسند اليه وزارة الحربية ومنح يومها رتبة اللواء.

بدأت الكفاح

قلت للسيد اللواء محمد صالح حرب:

لقد قدتم أول ثورة ضد الاحتلال والحماية عام ١٩١٥ فما هى ذكرياتكم عن هذه الفترة؟

ورجع سيادته بذاكرته الى الوراء، الى كفاحه المجيد وقال: «بدأت الكفاح وأنا فى وظيفتى بخفر السواحل فى عام ١٩١١ عندما بدأت ايطاليا فى تنفيذ سياستها الاستعمارية الرامية صراحة إلى غزو ليبيا...

وحينما بدأت الحرب العالمية الاولى، واعلنت انجلترا الحماية على مصر غلى الدم فى عروق المصريين جميعا، وفكرت فى وسيلة فعالة للإنتقام من الانجليز، ولم أجد سوى الحرب السافرة، فعقدت العزم مستعينا بالله على أن أعلن الثورة وأحارب الانجليز فى حدود مصر الغربية، وقوام هذه الثورة قوة الهجانة الموزعة على سكان الحدود الى السلوم، وسكان الواحات..

وفى ليلة ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٥ بدأت الثورة واستولينا على واحة سيوة والبحرية والداخلة، اما الخارجة فقد سبقنا الانجليز اليها واحتلوها لوجود سكة حديد واصلة اليها..

وكنت فى تلك الفترة قومندان مطروح والحاكم العسكرى للمدينة، وكان الملازم أحمد منصور مأمور واحة سيوة، وقد انضم الينا ووكل اليه أصعب عمل وهو المحافظة على الأمن والاشراف على التموين فى جميع الواحات، وقد أظهر بطولة رائعة..

ويتابع البطل الثائر ذكرياته قائلا:

«وبذلك تركت الخدمة فى السواحل، والحكومة وحملت سلاحى فى وجه الانجليز، ثم انضممت لجيش ليبيا، وحكم على بالاعدام...

ولقد كان الجميع فى ليبيا يتمتعون بروح معنوية عالية، وكان الايمان يملأ قلوبهم ومشاعرهم، وأذكر أن السيد أحمد الشريف السنوسى، أصدر أمرا يقضى بألا يستثنى إنسان من الاشتراك فى الحرب والخروج الى الميدان سواء فى ذلك الرجال أو النساء، الا من كان «شيخ زاوية» أو «قاض».

وحدث أن مشايخ الزوايا والقضاة كان عددهم كبيرا، ولم يرض هذا ضاربة الطبل وهى امرأة كانت تركب جملا وعلى الهودج طبلتان تضرب عليهما لبعث الحماسة والحمية فى قلوب المحاربين، فأخذت تنشد «خلوهم ضنا الطليان.. اللى موافوا عيقلة» أى خلوهم من بنى الطليان الذين هم ليسوا باخوانى، وكانت تقصد أولئك الذين كثر عددهم، فسمعها الجماعة المستثنون ودخل الحماس قلوبهم وسرعان ما استجابوا وخفوا الى الميدان..

وحاول السيد السنوسى أن يرجعهم ثانية، ولكنهم رفضوا وتركوا وظائفهم وخافوا العار وحاربوا جنبا الى جنب مع إخوانهم المجاهدين..

ماذا أقول للجندى؟

ويستمر صالح حرب الضابط السياسى المحارب، فى سرد ذكرياته التى تعد فى الواقع وثيقة رائعة فى تاريخ أمتنا فيقول:

«عندما عينت وزيرا للدفاع كان أول ما شغل بالى هو ان أطلع على خطة الدفاع عن الحدود الغربية المهددة بهجوم ايطاليا، ورأيت أن الدفاع غير مستكمل العناصر فرأيت أن أعرض الأمر على رئيس الوزراء على ماهر الذى عرضه بدوره على الملك السابق، وانتهت الاتصالات بأن قام الوزير ومعه أركان حرب الجيش المصرى المرحوم عزيز المصرى وقائد القوات الانجليزية بمعاينة الحدود ووضع خطة الدفاع عنها تنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦.

وخلال هذه الفترة اعلنت الحرب العالمية فى ٢٩ سبتمبر عام ١٩٣٩ وكانت بريطانيا تريد أن تدخل مصر الحرب الى جانبها هى والحلفاء، ضد محور المانيا وايطاليا.

ولما ألح السفير البريطانى(٤١) فى طلب دخول مصر الحرب، اشترط على ماهر الغاء

معاهدة ١٩٣٦ وعقد معاهدة أخرى تشمل الجلاء عن مصر والسودان، وتكون معاهدة الند للند بين دولتين مستقلتين.. ولكن السفير الانجليزى، رفض، ورفضت الوزارة كذلك دخول الحرب الا اذا هوجم جيشنا وهوجمت مدننا..

وقابلنى «ويلسون» وسألنى عن تمسك الحكومة المصرية بعدم اعلان الحرب فقلت له:

ماذا أقول للضابط أو الجندى المصرى الذى أدفعه للميدان ليموت؟ هل أقول له ضح بحياتك من أجل الامبراطورية البريطانية؟ وهل تعتقد أنه يقبل التضحية؟ أما اذا قلت له: انك ستضحى بحياتك من أجل بلادك وحريتها فإنه لن يتردد.. وهنا أجابنى «ويلسون» بقوله: معك حق!

ومع هذا الامتناع، ظلت بريطانيا تضع العراقيل فى طريق الوزارة حتى أبرق «هاليفاكس» وزير خارجية تشرشل للملك السابق يطلب اقالة الوزارة... وأبرق الملك السابق لملك بريطانيا يشكو تصرف وزير الخارجية، ورد ملك بريطانيا بأنه ملك دستورى لايملك التدخل فى شئون الحكم.

وخضع الملك السابق... وخرجت الوزارة التى عارضت فى دخول الحرب!

كانت الغواصة تغرق بنا!

ويمضى اللواء صالح حرب فى ذكرياته:

«وفى ليبيا وكنت القائد العام للجيش السنوسى. سافرت الى استامبول مع السيد أحمد السنوسى تلبية لدعوة السلطان وحيد الدين السادس ليقلده نائب الخليفة الأعظم فى افريقيا، وذلك بعد أن مات السلطان محمد الخامس. وكانوا يقيمون حفل التتويج فى ضريح السلطان أيوب احد الذين قتلوا على أبواب استانبول... وركبنا الغواصة من «العقيلة» وكانت ميناء فى غرب السلوم، ولما دخلنا على «الأدرياتيك» كان يتعين على الغواصة أن تغوص الى عمق ٤٢ مترا لأن القطع الصغيرة من أسطول الحلفاء كانت تتناثر فى مياه الادرياتيك، وكانت أجهزتها تسمع الى عمق ٣٧ مترا ليعرفوا مكان الغواصة..

وتعطلت الغواصة، وأحسسنا بذلك وسألت قومندان الغواصة فقال:

سأقول لك على شرط.. قلت: ماهو هذا الشرط؟ ألا تقول شيئا للسيد السنوسى؟

قلت: وهو كذلك؟ وعندئذ قال لى أن الغواصة تعمل بماكينتين معا، وقد تعطلت إحداهما...

وشعرت اننا فى خطر مؤكد، وأن الموت يحيق بنا، خاصة أننا على عمق اثنين وأربعين مترا فى الماء، والقطع الخاصة بأسطول الحلفاء تحيط بنا.. وأخذوا يعملون فى اصلاح العطل الذى أصاب الغواصة بهمة عالية ومهارة بارعة، وتحققت ارادة الله لنا بالنجاة، وحصلت بركة الشيخ السنوسى وكرامته وسرعان ما تم اصلاح الغواصة وصعدت الى وجه الماء، وحمدنا الله...

ثم وصلنا الى «بولا» وكانت وقتها ميناء تابعا للنمسا- وهى الان تتبع يوغوسلافيا - ومن هناك وصلنا الى فيينا، ومكثنا بها سبعة أيام جهزنا أنفسنا خلالها ثم ذهبنا الى استانبول...

وكانت المقابلة فريدة فى نوعها، فلم يقابل ملك مثلما قوبل السيد أحمد الشريف السنوسى ولم يبق أمير من أمراء آل عثمان الا وخف الى استقباله لمكانته العظيمة... ونزلنا فى سراى «كبو» وهى أكبر سراى هناك، وحضرنا حفل التتويج للسلطان وحيد الدين حيث قلده الوشاح وسيف عثمان أحد افراد الأسرة التى تتوارث القيام بذلك، وكان الحفل بضريح السلطان أيوب أحد الصحابة الذين قتلوا على أبواب استانبول.

قصتى مع الشبان المسلمين

وقد انتخب اللواء صالح حرب رئيسا لجمعيات الشبان المسمين سنة ١٩٤٠.

ويقول سيادته:

«كانت الوزارة قد استقالت، واتصل بى بشأن رئاستى للشبان المسلمين المرحوم الدكتور الدرديرى(٤٢) وكنت مشتركا بالجمعية منذ انشائها، وحتى عندما أصبحت وزيرا للدفاع كنت مشتركا فيها...»

وقال لى الدكتور الدرديرى رحمه الله:

إننا نريد أن نجتمع بك، فإما أن نحضر لك أو تحضر لنا بالجمعية، وسألت عن الغرض من ذلك فشرح لى الموضوع، ولكنى رفضت، فألح على وطلب المقابلة، فوعدته بالحضور..

وجئت الى الجمعية ووجدت الدكتور الدرديرى والمرحوم زكى على «باشا»(٤٣) وبعض الأعضاء الآخرين وقالوا لى: ان الدكتور عبدالحميد سعيد(٤٤) فى دار البقاء، وقد اخترناك بعد بحث طويل ودقيق، واستعرضنا كثيرا من الاسماء والزعماء فلم نجد سواك يصلح لأداء هذه الرسالة، فنرجوك أن تقبل هذا..

ولكنى رفضت وقلت اننى طوال حياتى رجل عسكرى، وسأظل مشتركا بالجمعية كما كنت وكما سأكون، ولكنى لا اقبل أن أكون رئيسا.. فعادوا يقولون:

ولكن هذا الاختيار بالاجماع من الجمعية.. فقلت لهم: دعونى أفكر... وذهبت الى أسوان، وهناك اتصلوا بى كثيرا ثم أرسلوا لى رسولا قال لى لن اخرج من أسوان إلا وأنت معى!».

ووجدت انه لامناص من الاستجابة لهذه الرغبة الكريمة من اخوانى فقبلت أن أكون رئيسا للشبان المسلمين، وكان ذلك سنة ١٩٤٠.

أرادوا إبعادى!

ويكمل اللواء صالح حرب قصته مع الشبان المسلمين قائلا:

بعد حادث ٤ فبراير المشهور لم أجد صدى له من أية هيئة، ولم أر أى رد فعل من الشعب.

فذهبت الى جمعية الشبان المسلمين، وجمعت مجلس الادارة وقصصت عليهم تفاصيل الحادث المؤسف، فأشاروا بالحكمة والتريث، وعدم الاحتجاج، ولكنى أصررت على الاحتجاج، وكتبته بنفسى وسلمته لارساله للسفير البريطانى..

وفى اليوم التالى وجدت أن الاحتجاج لم يرسل، فحملته بنفسى وذهبت به للسفارة البريطانية وسلمته بيدى لمستر «كارت»(٤٥) السكرتير الشرقى.

وقال لى فى تهكم: أهو اعلان حرب ياباشا..

ورددت عليه بنفس طريقته: لو أستطيع أن أعلنها لما ترددت، وأنت تعرف!

الى جنوب أفريقيا...

قلت لسيادته:

وما هى نتيجة ذلك؟

فقال: لقد طلب الانجليز من الملك فاروق تسليمى لهم لارسالى الى جنوب افريقيا...

ونقل فاروق الطلب لمصطفى النحاس الذى كان يومها رئيسا للوزارة، الذى اكتفى بسفرى إلى أسوان.

وهناك وانا فى أسوان توالت المساعى لحملى على الاستقالة من رئاسة جمعية الشبان المسلمين.

وقد زارنى «توفيق دوس»(٤٦) وطلب منى - فى لباقة سياسية - الاستقالة لأتفرغ لراحتى وصحتى. وكان ردى عليه موجزا للغاية: انت توفيق دوس، تأمر محمد صالح حرب؟ فتراجع فى خجل... واعتذر... وخرج!

وجاء أحمد ماهر(٤٧) إلى الحكم، وأرسل إلى فى أسوان يرجو نفس الرجاء فرفضت.. ثم عاد وعرض على دائرة أسوان مطلقة ليكون دخولى البرلمان سببا فى ترك الشبان المسلمين، فرفضت أيضا..

وبعد مقتل أحمد ماهر جاء النقراشى الى الحكم(٤٨) ورغب فى أن أزوره فى الوزارة، ولكنى امتنعت عن ذلك وزرته فى منزله بمصر الجديدة.

وهناك قرأ على خطابا من السفير البريطانى وقائد عام الطيران وقائد عام القوات البرية، يطلبون استقالتى من الجمعية بعد إخطارات متتالية من حسن فهمى رفعت(٤٩) لهم، وجاء فيها أن صالح حرب يدير الجمعية من بيته فى أسوان كما لو كان يديرها من مكتبه بالجمعية.

ورفضت وساطة النقراشى وقلت له: دعنى.. خل بينى وبينهم، ولن أعود الى أسوان إلا بالحديد فى يدى وسأبقى فى القاهرة.

وقال لى النقراشى: طيب روح اسكندرية.. الدنيا حر!

وفى الاسكندرية وجدت كابينتى مجاورة له فتركتها بعد أن اعتذرت عن قبولها خوفا عليه!

رشحوا البرنس محمد على

ويقول اللواء محمد صالح حرب:

«لقد كان الانجليز يريدون شخصا يأمنون جانبه، فرشحوا البرنس محمد على توفيق(٥٠) وسمع اخواننا بالجمعية واتصلوا بالسراى وقالوا نحن نريد صالح حرب، واذا أصررتم ورشحتم البرنس محمد على فلن يوجد واحد يعطيه صوته، وعندما وجدوا ذلك سحب نفسه!

وبعدها أرادوا أن يجيئوا بفؤاد سراج الدين(٥١) وكان الدكتور منصور فهمى(٥٢) يؤيد ذلك ويقول انه غنى وعنده نفوذ، وان الجمعية سوف تستفيد كثيرا من ورائه.

ولكنهم قالوا له: لانقبل هذا منك!

ولما لم يجد فائدة، لم يرشح نفسه، وكان منصور فهمى أحد سبعة انتهت مدة عضويتهم ولابد أن يقدموا طلبات بإعادة انتخابهم، ولكن لم يأخذ أى صوت فى الانتخابات.. ولما عدت وجدته خارج المجلس فأعدته.. الى الجمعية.

أساليب الاستعمار

واسأل صالح حرب، الرجل الذى كره الاستعمار بقدر ما أحب بلاده، اسأله عن طبيعة المعارك التى يخوضها الأحرار اليوم ضده وهل تغيرت أساليب الاستعمار؟

فيقول: الاستعمار هو الاستعمار قديما وحديثا.. ومهما تعددت أساليبه واستعمل طرقا جديدة وحديثة فهو الاستعمار، تعددت وسائله ولكن النتيجة واحدة..

١١ - كيف سافرت مع السنوسى إلى تركيا

دعى صاحب السيادة أحمد الشريف السنوسى بصفته نائب الخليفة الأعظم فى افريقيا. ودعيت معه بصفتى القائد العام للجيش السنوسى، دعينا لحضور حفل تتويج السلطان صاحب الجلالة محمد السادس وحيد الدين..

وحفل التتويج عندهم هو تقليد سيف جدهم السلطان عثمان، ويقام هذا الحفل كما اعتادوا فى ضريح الصحابى الكبير السلطان أيوب.. وأرسل السلطان لنا غواصة ألمانية بتكليف من الحكومة التركيه الى ميناء «العقيلة» على الشاطئ الليبى، فركبناها واجتزنا بها البحر الأبيض المتوسط والأدرياتيك حتى وصلنا الى «بولا» وكان يحتشد بها الاسطول النمساوى كله، ومن هناك ركبنا القطار حتى وصلنا الى فيينا، ومكثنا بها سبعة أيام ثم ركبنا قطارا الى استامبول وتمت مراسم تقليد سيف عثمان لجلاله السلطان محمد السادس وحيد الدين..

وكانت عائلة خاصة هى التى تقلد السيف وتتوارث هذا العمل، الا فى هذه المرة فإن السلطان قد كلف السيد أحمد الشريف السنوسى، أن يقلده السيف تكريما لسيادته وتبركا به.

حفاوة بالغة

وقد قوبل السيد احمد الشريف أعظم مقابلة، وقد كان تكريم الامبراطور غليوم عندما دعاه السلطان عبدالحميد، كان هذا التكريم مضرب المثل فى الحفاوة، حتى جاء السيد أحمد الشريف السنوسى فأمست هذه الحفاوة لاتذكر أبدا بجانب ما قوبل به السيد السنوسى من حفاوة بالغة وتكريم عظيم..

سلمت بلغاريا التى كانت تحارب فى ذلك الوقت، ولم تجد الدولة العثمانية أيضا مناصا من التسليم للحلفاء، فرأى السلطان وحيد الدين أن يغادر السيد أحمد الشريف السنوسى الاستانة قبل أن يدخلها الحلفاء منتصرين، ومن ثم غادرنا الاستانة قبل دخول الحلفاء بثلاثة أيام واتجهنا الى «بروسة» فى الاناضول..

الثورة الكمالية

وكان الانجليز فى مصر قد استصدروا حكما على بالاعدام، وكنت أتحرق شوقا للعودة الى وطنى الحبيب، ولكن كان من رابع المستحيلات أن أعود فى ذلك الوقت وفى هذه الفترة بدأت الثورة الكمالية فى تركيا..

وبعد هزيمة تركيا ودخول الحلفاء استامبول ثار فريق من ضباط تركيا الأحرار، وعلى رأسهم مصطفى كمال، فأعلن الثورة على هذه الاوضاع الفاسدة، وسعى سعيا حثيثا ليضم اليه السيد احمد الشريف السنوسى إذ كان موقفه فى غاية من الدقة، وكان أيضا فى أمس الحاجة الى المؤيدين والانصار، فأرسل رسالة الى السيد السنوسى تفيض وطنية وغيرة على الإسلام، وعندما آمنا بأهداف الثورة الكمالية ومبادئها انضممنا إلى مصطفى كمال..

وكان السلطان العوبة فى أيدى الانجليز، وقد حملوه على أن يستصدر فتوى من شيخ الاسلام هناك تقول بأن مصطفى كمال مارق على الخليفة، وانه خارج على الدين والدولة. وكانت هذه الفتوى فى الواقع من أسباب سعى مصطفى كمال لضم السيد أحمد الشريف السنوسى إليه لمكانته الدينية الكبرى..

أتعس النتائج

وكانت الحرب، ثم المفاوضات بين الجانب التركى، والانجليز وانتهت هذه المفاوضات بين الجانبين الى أتعس النتائج، فقد أملوا مع الاسف على الاتراك شروطا مجحفة لم

يرض عنها مصطفى كمال والضباط العظام الأحرار الذين كانوا فى أنقرة..

وحدث الانقسام، وأصبح مصطفى كمال والضباط العظام فى جانب.. والسلطان والوزراء ومن بقى من الجيش فى جانب آخر..

وقد انضم الجيش للسلطان ولكنه كان موجودا فى الغرب، فى الجهات التى كان يحارب فيها.. وكان السلطان يسيطر عليه.. وكان لابد لنا من جنود نحارب بهم، وبلغ بنا الحال أن نأخذ قطاع الطرق لندربهم ونحارب.. وكان هناك شخص اسمه «أدهم» وهو «شيخ منصر» أى كبير قطاع الطرق فكان يجمع لنا هؤلاء القطاع الذين كانوا يتقاضون أجورهم ويأخذون مرتباتهم من مصطفى كمال حتى يحاربوا معه..

وجعل بلدة «اسكى شهر» الأساس لتكوين جيشه الجديد، فلم يجد صعوبة كبيرة فى ذلك، وبدأت التدريبات وسرعان ما انتهى تدريب أول كتيبة، وجاءت كتيبة اخرى لتدريبها، وفى هذه الأثناء بذل السلطان كل جهودة حتى يمنع قطاع الطرق من التعاون معنا.. وبالتالى يحول دون اقلاق الحلفاء.

وتمكن بالفعل من تحقيق غرضه، وأعلن قطاع الطريق الثورة والعصيان والخروج علينا فى «كوتاهيا».. وقال لهم السلطان أنا خليفة المسلمين كيف تتركوننى وتنضمون مع مصطفى كمال؟

وفى هذا الوقت كان «عصمت»(٥٣) فى «اسكى شهر» أى البلدة القديمة وكان عنده طابور واحد أكمل تدريبه.. فأخذ هذه الكتيبة التى تم تدريبها وتصادف وجود «فتحى» وهو ضابط تركى من السوارى، فأخذه معه وذهب ليخمد ثورة قطاع الطريق فى «كوتاهيا» وإذا باشارة تليفونية من «ينى شهر» أى البلد الجديدة الى «اسكى شهر» تلقاها الضابط بورصلى كاظم الذى كان قد خلفه لينوب عنه تقول «لقد جاءتنا إشارة تفيد بأن هناك فرقة مشاه وآلاى سوارى وبطاريتين جبل طالعة من «بورصة».

وكان بورصلى كاظم فى «اسكى شهر» وعنده كتيبة لا زالت تحت التدريب ولكن الذى أفادنا حقا هو انه كانت هناك قوة من الحلفاء فى «اسكى شهر» وكانوا قد تركوا ست مدافع ابوس، وهى نمساوية تركوها قبل الانسحاب، وهى ممتازة جدا.

وعندما انسحبوا حطموا حوامل المدافع، فوجد الاتراك هذه الحوامل محطمة، ولم يلاحظ الانجليز أن هناك «جبخانة»(٥٤) للمدافع، فلما رآها الاتراك فرحوا للغاية وأخذوها وأصلحوها ثم عملوا حمالات اخرى، ووجدوا الذخيرة كثيرة، وقد شجعهم هذا على القتال.

وكان لهذه المدافع الأثر الكبير فى معركة اينونو وبمجرد أن جاء هذا الخبر من بنى شهر، ارسل «كاظم» الخبر لعصمت ينبئه بنتيجة الاشارة التليفونية.. وخرج المنادى ينادى على المتطوعين فى سبيل الله.. واجتمعنا فى «بنى شهر» واتجهنا الى الطريق الذى لابد ان يمروا منه، وجئنا من شرق السكك الحديدية وجاء «عصمت» بقوته من الغرب، فأصبحوا فى الوسط وكان الحصار فى محطة «اينونو» ووجودا انفسهم بين قوتينا فأبيدوا عن بكره أبيهم وتم لنا النصر فى هذه المعركة الحاسمة الهامة..

وفد من العراق

وفى هذه الفترة جاء وفد من العراق يتكون من أربعة وعشرين شخصا، من الحضر ومن البدو، ومن السنة، ومن الشيعة، جاءوا جميعا موفدين من الحكومة الثائرة فى العراق التى كانت تحارب الانجليز.. لمقابلة مصطفى كمال فى أنقرة. ومعهم رسالة من رئيس الثورة وقالوا له:

اننا نقوم بمحاربة الانجليز، ونريد منك سلاحا ونخيرة، الى جانب بعض الضباط وبمجرد أن ننتصر عليهم ونطهر البلاد منهم سنعلن أنفسنا ولاية تابعة لتركيا، كما كنا.. فلما سمع منهم مصطفى كمال هذا الكلام قال لهم:

أنتم عرب ونحن أتراك ونحن نتمنى لكم التوفيق وأنا بحاجة الى جنودى وضباطى.. فقالوا له:

اننا نعلم أن الشيخ السنوسى موجود هنا..ونريد أن تقنعه بمساعدتنا ونحن ننادى به ملكا على العراق..

فقال لهم مصطفى كمال: أما هذه فبكل سرور، لأننا نثق فى السيد السنوسى ونسعد به ونأمن له..

أقبل ولكن الشروط؟

وارسل مصطفى كمال فى طلبى، واستشارنى فى الامر فقلت له ان السيد السنوسى موجود هنا فلماذا لا تفاتحونه فى الموضوع.

قال لى: وهل سيقبل؟

قلت له: حدثه فى الامر... فقال: متى؟

قلت له: تعال غدا فى الساعة الخامسة..

وجاء مصطفى كمال فى الموعد المحدد وحكى له القصة كلها، فقال السيد السنوسى: والله أنا لم أخرج من بلدى لأبحث عن الملك، أنا رجل مجاهد فى سبيل الله..

فقال له مصطفى كمال: إذن اذهب معهم مجاهدا.. ورد السيد السنوسى. أما هذه فأقبلها ولكن بشرط واحد..

فقال مصطفى كمال: وما هو هذا الشرط؟

الطلبات التى طلبوها منك تنفذها... فأجاب مصطفى كمال:

بكل ترحاب، من أجلك سأعطيك كل شىء وسأقوم بكتابة خطاب لنهاد باشا قائد المنطقة الشرقية فى «ديار بكر» عاصمة الكرد لتزويدك بكل ما تطلبه.

وأردف السيد السنوسى يقول:

لقد وافقت بشرط أن يكون معنا البكباشى محمد صالح حرب. ووافق مصطفى كمال، وأقبل الوفد يحيى الشيخ السنوسى ويشكره ويقبل يديه.. ورجع الوفد ليهيئ كما قال الرأى العام لاستقبال السيد السنوسى وسافر قبلنا بخمسة عشر يوما..

ما جئت لأكون ملكا

وبدأنا الرحلة، حتى وصلنا الى ديار بكر وتقابلنا بنهاد وأخذ خطاب مصطفى كمال.

وقال: إننا مستعدون لتقديم كل المساعدة.

وأخذنا منه السلاح.

وعندما سمع الانجليز بذلك جن جنونهم، وما نشعر الا وهم يعلنون تتويج الملك فيصل ملكا على العراق، وكان فى سوريا.

ووجه الملك فيصل خطابا الى السيد أحمد الشريف السنوسى قال فيه:

«يا ابن عمى، أنا الان أصبحت ملكا على العراق، ونحن أبناء عمومة، ولا يصح أن نقتتل فيما بيننا على الملك.. والأمر لك»..

فرد عليه السيد السنوسى قائلا:

«أنا ماجئت لأكون ملكا، لقد جئت لأخلص البلد من الانجليز ولم اجىء لنختصم على ملك، فاذا كنت تستطيع ان تحقق ما جئت من أجله فمرحبا..»

وكتب الشيخ السنوسى خطابا لمصطفى كمال ورجعت الى «ديار بكر» فى طريقى لأعطيه لمصطفى كمال.

١٢- جهادى فى تركيا مع الحركة القومية التركيه ضد اليونانيين

الفصل الجديد

يقول السيد اللواء محمد صالح حرب، مستطردا حديث ذكرياته:

«رجعت بالخطاب الى مصطفى كمال، ووصلت فى الوقت الذى كانوا يحاربون فيه فى معركة «نهر سكاريا» – وكانت من أهم المعارك التى خضناها – وقد استمرت مدة ثلاثة وعشرين يوما، ولكنها كانت معركة فاصلة حاسمة وانتهت بنصر مصطفى كمال..»

وكان مصطفى كمال يمر على الجبهة كل يوم ممتطيا صهوة جواده، ليطمئن بنفسه على جنوده ويرفع روحهم المعنوية التى تعد من ألزم اللوازم وأقوى الاسلحة فى الميدان..

ولكن طبيعة الأرض فى الجبهة كانت سيئة للغاية اذ كانت الارض وعرة كثيرة المنحنيات والمنخفضات، كما كانت كثيرة المرتفعات.. وذات يوم وبينما كان مصطفى كمال يمر على الجبهة تعثر به الجواد وسقط من فوقه وكسر أحد ضلوعه فى صدره، وكان لابد له أن يلزم الفراش لشدة اصابته ويبقى طريح هذا الفراش حتى يعالج من هذه الكسور..

المرور على الجبهة

ولم يلبث فى فراشه سوى أربعة «أيام» ومع ذلك سرت إشاعة بين الجنود تقول أن الغازى مصطفى كمال قد مات، وكادت الروح المعنوية بين الجنود أن تتلاشى، وضعفت

عزائمهم نتيجة لسماع هذا الخبر المؤلم...

وبلغ الخبر مصطفى كمال فقال «لابد أن أمر على الجبهة» ونصحه الكثيرون - حرصا على صحته واشفاقا عليه - بعدم المرور حتى يشفى تماما ويلتئم كسر أضلاعه، ولكنه أصر على رأيه لانه كان يعلم جيدا مبلغ تأثير هذا الخبر فى نفوس الجنود وكان له ما أراد، فقد ضمدوا له جروحه وربطوا صدره وحملوه على الجواد..

وبدأ المرور من أول الجبهة إلى آخرها وهو يتحامل على نفسه ويحيى جنوده بيده، ورآه الجميع على طول الجبهة وتأكدوا بأعينهم أن قائدهم على قيد الحياة.. يمر عليهم ويحييهم ويبعث فى نفوسهم من روحه العالية، ويمدهم بالعزيمة القوية والإيمان، الذى يصنع المعجزات..

معركة نهر سكاريا

ولما رأى الحلفاء - وكان الذين يحاربون هم اليونان ومعهم قواد من الانجليز والفرنسيين والايطاليين - وكان أكثر الجيش من اليونانيين...

أقول لما رأوا أن مدة الحرب قد طالت أرادوا أن يخوضوها معركة حاسمة فاصلة.. ونظموا تجمعات فى جناحهم اليسار على يميننا، وأرادوا بذلك أن يعملوا حركة التفاف على جناحنا الأيمن فى معركة نهر سكاريا.

وعند مرور مصطفى كمال رأى أن هناك تجمعات على جناحنا الأيمن، وسأل عن هذه القوات، فحكى له «عصمت» القصة، فرجع مصطفى كمال الى الخريطة وقال له:

- اسمع.. العدو لن يعمل حركة التفاف على جناحك الايمن بل سيعمل هذه الحركة على جناحك الايسر!!

فقال عصمت:

- غير معقول ياسيدى، لقد مضى أسبوع وهو يجمع قواته ويحشدها على جناحنا الأيمن.

فقال مصطفى كمال:

- ولو.. اعمل حسابك ان العدو سيقوم بحركة الالتفاف على جناحك الأيسر وليس على الأيمن.

النصر لنا

وأخذ (عصمت) ينقل جيشه من اليمين الى اليسار، ولم يعلم العدو بهذا التغيير، وظن أن القوات التى رآها ما زالت كما هى فى مواقعها.

وقد تحقق ما قاله مصطفى كمال فعلا وفى الليلة التاسعة عشرة بدأت المعركة التى شتت فيها شملهم وتفرق جمعهم، ولاذت البقية الباقية منهم بالفرار، وكان ما أشار به مصطفى كمال من تغيير للخطة سببا فى الحاق الهزيمة بهم وكتابة النصر لنا..

الواقع أن مصطفى كمال كان قائدا شجاعا، ممتازا، وكان الى جانب تبحره فى الاستراتيجية العسكرية والتعبئة، صاحب أفق واسع، اشترك فى معارك كثيرة.. واذا أمكنك أن تعد عشرة قواد فى العالم فلابد أن تذكر منهم الغازى مصطفى كمال..

فى كلية اركان الحرب

وتم النصر المبين لمصطفى كمال بعد تعدد المعارك مع اليونان الى أن القوا فى البحر وتحررت تركيا من سلطانها الضعيف الذى اصبح فى أخريات أيامه ألعوبة فى أيدى الانجليز.

وبعد أن تم النصر للغازى مصطفى كمال - عدت الى استامبول والتحقت بكلية أركان الحرب هناك.

وقد أديت امتحان السنة الثالثة بنجاح، ثم التحقت بالسنة الرابعة وأقمت بهذه الكلية سنة كاملة وتخرجت فيها...

إلى الأراضى الحجازية

أما الشيخ أحمد الشريف السنوسى فقد رجع فى هذه الفترة الى الجنوب (الاناضول)، ومن هناك سافر الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج...

وكان رحمه الله يدعو دائما بأن يلقى وجه ربه فى مدينة النبى عليه الصلاة والسلام وأن يدفن بجواره..

وكنت أقول له:

- اعمل معروف أشركنى معك فى الدعاء.

فيضحك رحمه الله ويقول:

- والله أنا لا أنساك.. وعدت الى مصر.

ثم جاءتنا أخبار من «مصر» تقول انه قد صدر عفو شامل عن المجاهدين المصريين الذين كان قد حكم عليهم بالاعدام..

وكان قد صدر دستور ١٩٢٣ فى أعقاب ثورة ١٩١٩ والوعد بالاستقلال..

وفى سنة ١٩٢٤ صدر العفو الشامل عن المجاهدين المصريين، وشملنى العفو وعدت بعد أن سبقنى اخوانى الضباط ومنهم ضباط الصف والأنفار الى وطنى لأشارك فى الجهاد السياسى الجديد.. وعدت بعد أن أنهيت امتحانى فى كلية أركان حرب.

١٣-عينت قائداً عاما للجيش السنوسى

بعد أن أعلنت ايطاليا الحرب على ليبيا، طلب الانجليز من مصر إما أن تعلن الحياد وقالوا أنهم فى هذه الحالة على استعداد لحمايتها، واما اذا لم تعلن الحياد فلا شأن لهم بها.

ولاحماية سواحلها وموانيها من أى اعتداء تقوم به ايطاليا وأمام هذا التهديد اضطرت مصر الى إعلان الحياد.. وكنا فى هذه الفترة على الحدود، والمطلوب منا هو تنفيذ الاوامر، ولكننا كنا نساعد على تهريب القادة والضباط الاتراك عبر صحراء مصر الغربية، ثم الى ليبيا.. وقد اشتكت ايطاليا من وجود الضباط المصريين على رءوس الدوريات واستبدلوهم بالضباط الانجليز فكان هذا باب فرج لمضاعفة الجهود فإن وجود الضباط الانجليز رفع عنا مسئوليات كثيرة، وقد كنت أخفى هؤلاء القادة والضباط فى بيتى، وكنا ننبه على الدوريات التى فى الخدمة بأن تسهل مرورهم..

ولم يكن الضباط الانجليز على علم كاف كضباطنا بالصحراء وأسرارها، فأصبح التهريب أكثر من الأول..

وفى هذه الفترة أيضا أعلنت مصر انشاء الهلال الاحمر بمساعدة الامير عمر طوسون(٥٥)، وقد توافدت القوافل التى تحمل المؤن الى جانب الأدوات الطبية اللازمة لعلاج

الجرحى والمصابين فى الميدان من اخواننا المجاهدين.

وأصبحت المؤن كثيرة، فأرسلنا الى القاهرة رسالة قلنا فيها أن الطعام الآن كثير، ونحن فى حاجة الى أسلحة وذخيرة، وقلنا لهم ضعوا فى أجولة الارز والدقيق أسلحة، وفكوا المدافع الرشاشة وضعوها داخل هذه الاجولة..

وفعلا نفذوا المطلوب ووصلتنا الاسلحة وسط القمح والدقيق وغيرهما فقد كان الانجليز يفرضون رقابة شديدة للغاية على إرسال الاسلحة للمجاهدين الليبيين..

وقد عينت خلال فترة الجهاد قائدا عاما للجيش السنوسى ووجه السيد أحمد الشريف السنوسى الى هذا الفرمان.. وقد استهل «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما».

وهذا هو نصه:

«يقول كاتبه عبد ربه ومملوك أستاذة، نائب الخليفة الأعظم أحمد الشريف السنوسى:

«الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، ياقومنا أجيبوا داعى الله والصلاة والسلام على من نتوسل بجاهه عند القريب المجيب في امدادنا بالنصر والصولة علي عبدة الصليب، سيدنا محمد المرسل رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا، والداعى الى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى آله وأصحابه الهادين المهتدين من الأنصار والمهاجرين الذين شدوا أزره وشيد الله بهم من بعده معالم الدين، وارض اللهم عن أستاذنا بحر الحقائق المحمدية، ومحيى آثار السنة الأحمدية أقامنا بقدرة الله تحت نظره فى هذا المقام، وشرفنا بفضله وكرمه العام، محرضا لنا على أخذ الاهبة والاستعداد بالعدة والعدد لاحياء الشريعة والقيام بفريضة الجهاد مؤيدا ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: «لكل نبى حرفة وحرفتى الجهاد».

وبقوله تعالى «قاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله...»

«أما بعد فهذا ظهير معظم وعقد فخيم مكرم تعمه نعم الله، فضلا واسعادا ويحفه النور المبين منة وإرشادا، جعله الله مظهر العز الكامل والفضل الشامل حسبما اقتضت الارادة الألهية والحكمة الربانية، اظهاره على لسان عبده بمدد أستاذه السيد المفضال سيد سادات أهل الكمال، ولذلك قلدناه لولدنا وقرة أعيننا الهمام المسمى باسم خير الأنام، المحتمى بحماه الأحمدى والمقتبس من نوره المحمدى الا وهو ولدنا «محمد صالح باشا»

أناله الله من كل الخيرات ما أحب وشاء، وألبسه الله لباس الفخر والتقوى، وجعله شعاره ودثاره فى السر والنجوى، فأكرم به من فرع أصيل ذى مكانة ومجد أثيل ارتقى مرتقى الأكارم، وجنى أطيب المكارم، فحق له الاسعاد ووجب ادراجه مع الأكارم الأمجاد، بعدم ركونه الى الراحة، ونبذه للدنيا بخروجه من تحت جيش الاحتلال مع ما كان مقيما فيه بينهم من التعظيم والاجلال. فنبذ الكل والتحق بجيشنا المنصور بالله محبة فى دين الله وخدمة لخليفة رسول الله، واشهد الله انى رأيته قام بخدمة جليلة لدولة الاسلام قل من يقوم بمثلها فى الأنام...

«ولما رأيته بهذا الصدق والاخلاص الكامل وتمسكه بالعروة الوثقى ونبذه للنعيم الزائل اتخذته مستشارا وقائدا عاما لجيوشنا ومنحته رتبة فريق وسر ياوران الخاص ومنحته النيشان المجيدى الثانى(٥٦)، رفع الله مقامه بحرمة السبع المثانى، وخلعنا عليه خلعة سنية وقلدناه سيفا من سيوفنا، ومنطقة مرقومة بأبيات من البردة العظيمة البهية، وناولناه اللواء العظيم فتلقاه بالتكريم والتعظيم، وأخذه باليمين، جعل الله النصر على يده مقرونا بيمينه بحرمة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم.

ثم اننى أوصى ولدى بوصية أستاذى، وهى وصية الله فى الأولين والاخرين والأنبياء والمرسلين.

قال جل شانه وعز سلطانه فيما أوحاه:

«ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله».

وقال «واتقوا الله حق تقاته ولاتموتن الا وانتم مسلمون» وقال «واتقون يا أولى الالباب لعلكم تفلحون» وقال «فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» وقال «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا» وقال «ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرا» فأرحب لذلك صدرا اذ هى الذخيرة الناجحة النافعة فى السر والنجوى.

قال تعالى: «وتزودوا فان خير الزاد التقوى» والمرجو منه سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك شعارنا وشعاركم فى الحركات، والسكنات مع أداء المأموريات واجتناب المنهيات والتحفظ على أداء الفرائض فى أوقاتها من صلاة وصيام، والتحرز من ترك شىء على الدوام،

والحرص على اتباع السنة مع ملازمة الله والتخلق فى معاملة الأمة بخلق رسول الله، فبهذا تهتدون فى حل المشكلات وتنجون من الأمور المعضلات، اذ بها يحصل ملاك الأمر كله ووقاية جميع الأسواء وكشف أنواع البلوى والظفر بنهاية الامال، فما فوق ذلك فى الدارين مما لايخطر على بال، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

حرر يوم السابع فى أشرف الربيعين سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم».

وفى نهاية الفرمان كتبت هذه الكلمات:

«كتبه برقم بنانه ومملوك أستاذه، نائب الخليفة الأعظم أحمد الشريف السنوسى»..

١٤- عندما رفعنا العلم المصرى على السلوم وأحبطنا مشروع (كيب تاون - السلوم)

علم أحد زملائى الضباط وهو الضابط محمود لبيب – بالاتجاه الاستعمارى الذى يبيته الانجليز، وذلك عن طريق عمله معهم واختلاطه بهم، كما علم ذلك أيضا من برقية كانت مرسلة إلى «هنتر باشا»...

وكانت البرقية تقول:

«الى هنتر باشا: قابل الضابط التركى المعسكر بقشلاق السلوم العلوى، واحتل عليه فى اخلاء القشلاق وتسليمه، وان لم يرضخ توجه بجنودك الى ظهر الجبل وعسكر فى جهة مساعد التى تبعد ٣ كيلو مترات غربى قشلاق السلوم.. انتظر تعليمات أخرى».

امضاء   كتشنر

وارتفعت اصوات زملائى الضباط بالاستنكار القوى والغضب الشديد... وأذكر اننى قلت لهم يومها: «ليس هناك داع مطلقا لرفع أصواتنا وتنبيه الأعداء: إن علينا التزامات قطعناها على أنفسنا، وعهدا أقمنا جميعا على تنفيذه، إذن فلابد من العمل، فكروا فى القيود الجائرة التى كبلوا بها بلادنا، فكروا فى هؤلاء المعذبين الذين يسحقونهم بأقدامهم: لقد زادوا الفقراء فقرا، لكى يضاعفوا من ثراء أتباعهم الاغنياء!.

لقد أباحوا قطرا عربيا لدولة جائرة، لحاجة فى أنفسهم، وها هو الشعب الليبى أمامنا

فى دور الاحتضار! واذا ماتت جذور الشجرة سرى الموت الى اجزائها العليا كذلك. فالموت لا يجهز على عضو دون عضو: وغرق السفينة لايمكن أن يكون موضع قلة المبالاة من راكب دون راكب! فنحن جميعا فى الكارثة سواء اذا قلت ان الهاوية تفغر فاها لتبتلع الجميع!

احباط مؤامرة الانجليز

وكنا جميعا لانكاد نملك أعصابنا الثائرة، وأخذ زملائى فى التشاور، واستقر الرأى أخيرا على احباط أية مؤامرة يمكن أن يدبرها الانجليز.

وقال لى زميلى الضابط محمود لبيب:

– يا أخى.. انى أبحث عن مغامرة جديدة..

قلت له:

– لك الله، أما تعلم ان كل مغامرة لاتخلو من مخاطرة!

فقال: انى أرحب بالخطر فى سبيل أن افسد خطط هؤلاء الانجليز!

قلت له:

– ما أجمل أن يبلغ الانسان نهاية أمله، ان كان لما يرجوه حد يقف عنده، أو نهاية يصل اليها، وسيان بعد ذلك الموت أو الحياة!

وسكت زميلى.. تم قال:

لقد استدعانى «هنتر باشا» منذ قليل وأخبرنى أن أكون مستعدا أنا والملازم مرسى محمد، للتوجه معه غدا فى هذه المهمة مهمة تبليغ الضابط التركى أمر الاخلاء: كما جاء فى البرقية الشفرية، فما هو رأيك؟

قلت له:

– هذه النقطة بالذات هى محور تفكيرى الان، وعلى كل حال فلندع الحوادث تجرى فى مجراها الطبيعى، ولنترقبها متحفزين حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا وأعتقد انه سبحانه لايتخلى عن نصرة جنوده المخلصين.. أما عن المغامرات التى تريد أن تبحث عنها فالأيام الحافلة بها مقبلة لاشك فيها فترقب وانتظر..

وفى اليوم التالى توجه أربعة من الضباط صوب السلوم العلوى حيث تقوم الثكنة التركية، وكان على رأس هذه القوة «هنتر باشا» مدير عام السواحل والحدود والبحرية،

وانتهى بهم المسير الى الثكنة!

ولما تقابل «هنتر باشا» بالضابط التركى عصمت قال فى لهجة قاسية لاتخلو من عجرفة:

– عندى أوامر من كتشنر باخلاء هذه الثكنة وتسليمها لنا!

فرد الضابط التركى فى قوة وشجاعة:

– احتفظ بأوامر رئيسك لنفسك، أما أنا فإنى اعلنها صريحة مدوية، إنى لن أتزحزح عن هذه الثكنة حتى أبذل فى سبيل الزود عنها دمى، وأروى به رمال الصحراء أنا ورجالى.. اليك عنى. اغرب عن وجهى.

المأساة توشك أن تتكرر

وقد امكننا الوصول الى برقية بالشفرة عن طريق السيد أحمد مسعود وكيل مكتب تلغراف السلوم – وكان فى مقدمة الرجال العاملين المخلصين الذين يمتلئون غيرة ووطنية – وقد ارسلها لنا رحمه الله داخل مظروف صغير مع أحد سعاة مكتب التلغراف.

وفى المخيم الكبير اجتمع الضباط وأخذ زميلى يتلو عليهم البرقية مترجمة عن الشفرة. وكان نصها:

«الى مدير عام السواحل والحدود والبحرية هنتر باشا، ارفع العلم البريطانى على السلوم».

امضاء كتشنر

وأوشكت مأساة رفع العلم البريطانى فى السودان أن تتكرر من الانجليز أيضا فى السلوم... وقلت لزملائى الضباط:

– إن الساعة عصيبة، والوقت حافل بالخطر، إن علينا أن نتصرف بمنطق الوطنية، ونصون ارض بلادنا وما ينبغى لاى اعتبار ان يدخل فى حسابنا او يحول دون أداء واجبنا، وليس أمامنا الا عمل واحد وتصرف واحد، أطلبه منكم باسم وطننا العزيز، هو رفع العلم المصرى فوق هذه الأرض، انها أرض مصرية، فلابد من عمل المستحيل، وأرجو أن نقسم جميعا على هذا المصحف بأن ندافع عن هذه الارض، وألا نسمح برفع أى علم عليها الا علم مصر العزيزة، حتى لاتتكرر هنا مأساة رفع العلم البريطانى فى السودان، أو نموت جميعا فداء لهذه الغاية السامية، إذا اقتضى الأمر ذلك!

وأقسم جميع الضباط على المصحف الشريف ان يبروا بالوعد الذى قطعوه على انفسهم...

ووسط هذه الظروف أرسل المرحوم أحمد مسعود الحناوى وكيل مكتب التلغراف بالسلوم برقية أخرى كان فحواها:

«المستر برنجل مدير مخازن خفر سواحل الاسكندرية أرجو ارسال العلم البريطانى والسارية مع الطوافة عبدالمنعم لرفعه على السلوم».

امضاء هنتر

وكان علينا أن نتصرف سريعا وبحكمة.. ورأيت أن أرسل بعثة الى نقطة بقبق - وكانت تبعد عنا بمسافة ٤٥ كيلو مترا- لتحضر العلم المصرى من هناك..

وكان حكمدار هذه النقطة ضابطاً برتبة ملازم أول اسمه يوسف هيبة، وكان من اصدقائى الأعزاء ومن توفيق الله وفضله ان كان مثلى فى هذه النقطة فقد كان يتمتع - رحمه الله - بروح عالية، وايمان صادق.. وقد أرسلت اليه رسالة حملها الجاويش مرجان عليمى، ومعه اثنان صف ضباط هما الجاويش محمد عباس الغراوى والباشجاويش السودانى محمد على الشاجى.

وذكرت له فى الرسالة ان هؤلاء سيصلون اليه وجمالهم لاتصلح أبدا للعودة، فقد قلت لهم الا يرحموا الجمال بالنسبة لاهمية المهمة التى قاموا لانجازها.

وقلت له: وستصلك جمالهم وهى لاتصلح لان تعود بهم فمن واجبك ان تستبدل هذه الجمال بأقوى هجين عندك، وأرجو ان تسلمهم علم النقطة الذى عندك، وترسل معهم البروجى والبورى والسارى، لأن هذا العلم سينصب ويرفرف على السلوم، وأرجو أن يصلوا فى الميعاد المحدد لهم، وشكرا لك يا رب المروءة والوطنية».

عندما هبوا منهولين

وسلمهم العلم العزيز والأشياء الأخرى التى طلبناها ثم قفلوا عائدين بعد أن أنجزوا المهمة على خير ما يكون...

وبعد ان وصلوا شرعنا فى الحفر للصارى، وعلقنا العلم مطويا، ولا علم لأحد بذلك..

وكانت التعليمات قد أعطيت للضابط النوبتجى والجاويش النوبتجى وفى الميعاد المحدد كان البروجى تحت العلم..

وفى الموعد تماما عزف السلام ونشر العلم فى الحال، ولما سمع الانجليز البورى وهو يرسل تحية العلم هبوا مذهولين، وخرجوا فوجدوا العلم المصرى يرفرف على السلوم، وأسقط فى أيديهم.. وطأطأوا الرءوس وعيونهم تنظر الى الأرض، بينما العلم المصرى يتخذ وضعه نحو السماء وينشر ظله على أرضنا العزيزة..

هوامش التحقيق

١- يوزباشى: وهى رتبة النقيب حاليا.

٢- وهى الثورة التى قام بها اللواء محمد صالح حرب فى ٢٦ نوفمبر ١٩١٥ ضد الإنجليز على الحدود المصرية الغربية أثناء الحرب العالمية الأولى، وانضمت إليه قبائل أولاد على فى صفوف قوات المجاهدين السنوسيين والأتراك.

٣- أورفلة: بلدة تقع فى المنطقة الشرقية من طرابلس الغرب، وقد دارت فيها معركة فى أغسطس ١٩١٧ بين المجاهدين السنوسيين والإيطاليين بناء على أوامر نورى باشا وذلك رغم شدة الظروف الصعبة التى كان فيها المجاهدين بقيادة صالح حرب، وكان الهدف من هذه المعركة تحريك جبهة طرابلس ضد الإيطاليين، ولكن هذه الجبهة قد فشلت بسبب عدم اعتراف رمضان السويحلى بسلطة السيد أحمد السنوسى كممثل للسلطان العثمانى فى منطقة طرابلس. انظر: مصطفى على هويدى، الحركة الوطنية فى شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى. (الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالى ١٩٨٨) ص١٦٢- ١٧١.

٤- وهو من الضباط الذين انضموا إلى صالح حرب فى ثورته ضد الإنجليز عام ١٩١٥. انظر: المذكرات الخطية للعميد محمود عبدالواحد المنشورة فى: محمود دياب، أبطال الكفاح الإسلامى المعاصر (القاهرة: دار الشعب، ١٩٧٨).

٥- هو آخر السلاطين العثمانيين تولى عام ١٩١٨، وفر من أستانبول فى ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ بعد أن تم تجريد الخلافة من السلطة.

٦- مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨) نشأ فى سالونيك ودخل الجيش وانضم إلى حزب تركيا الفتاة، واشترك فى الدفاع عن الدردنيل فى عام ١٩١٥. وبعد سقوط الإمبراطورية العثمانية واحتلال استانبول، أرسل إلى الأناضول فى مايو ١٩١٩، حيث أشعل نار الثورة وكون جيشا من الوطنيين لمحاربة اليونانيين وطردهم من آسيا الصغرى، كما أسس المجلس الوطنى. وفى عام ١٩٢١ انتصر انتصارا ساحقا فى موقعة سقاريا فمنح لقب غازى. عقد مع الحلفاء معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليه ١٩٢٣، وفى ٢٩ أكتوبر أعلن الجمهورية فى تركيا واختير أول رئيس لها إلى حين وفاته. انظر: أحمد عطية الله، القاموس السياسى، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤١)، ص٦، ٧؛ زكى محمد مجاهد، الإعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية، ج١، (القاهرة: دار الغرب الإسلامى، ١٩٤٩) ص٥٠، ٥١.

٧- أحمد الشريف بن محمد ولد بالجغبوب (١٨٦٧- ١٩٣٣) خلف عمه المهدى السنوسى عام ١٩٠٢ مع تولى الوصاية على إدريس ابنه وبرز اسمه عام ١٩١٢ مع الغزو الإيطالى لليبيا وانسحاب تركيا فقاد حركة التحرير حتى إذا ما نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، عينه السلطان العثمانى نائبا له فى برقة ومنحه حق إعطاء الرتب والأوسمة واشترك فى الخطة التى وضعها الأتراك والألمان لغزو مصر، لكنها فشلت ودب الخلاف بينه وبين ابن عمه إدريس فكان ذلك من أسباب خروجه إلى استانبول فى

غواصة ألمانية، وهناك منح رتبة وزير ثم لجأ إلى دمشق ثم إلى الحجاز وتوفى فى المدينة. انظر: أحمد عطية الله، القاموسى الإسلامى، ج٣ (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠) ص٥٣٣.

٨- اصدر مصطفى كمال أتاتورك أمرا بإلحاق صالح حرب بكلية أركان حرب التركية تقديرا لدوره فى حركة التحرير التركية، إذ كان الالتحاق بها قاصرا على الأتراك فقط. انظر: مجلة رسالة الإسلام الجديدة، العدد ٩ ، أكتوبر ١٩٨٤، ص٣١.

٩- الجدير بالذكر أن السلطات الحاكمة بمصر قد أصدرت حكما بالإعدام على صالح حرب عام ١٩١٥ لقيامه بالثورة هو ومن انضم إليه من الضباط والجنود، وقد صدر عفو عنهم فى وزارة سعد زغلول الأولى عام ١٩٢٤. انظر: محمود دياب، مصدر سابق، ص١١٤.

١٠- تم عزل السلطان عبدالحميد الثانى فى عام ١٩٠٩.

١١- اللواء مكريدى (Mcready): هو رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى الجيش المصرى أثناء عامى ١٩٣٩-١٩٤٠. انظر: عبدالوهاب بكر محمد، الوجود البريطانى فى الجيش المصرى ١٩٣٦-١٩٤٠، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢) ص١٩٣.

١٢- الجنرال ويلسون (Wilson): قائد عام الجيوش البريطانية فى مصر عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠.

١٣- الطوافة: مركب صغير يتولى حراسة الشواطئ.

١٤- الحطايا: جمع حطية وهى تعنى محلة أو قرية صغيرة تحيط بها الحدائق التى تعتمد فى ريها وزراعتها على عين أو أكثر من عيون المياه. أنظر:

Fakry, Ahmed, Siwa Oasis, (Cairo: The American University Press,1973) P31.

١٥- نورى بك: ضابط تركى حضر المعارك ضد الإيطاليين فى طرابلس ١٩١١- ١٩١٢، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى أوفد إلى برقة لإشعال الثورة على الإنجليز ومهاجمتهم من جهة الغرب، وبعد فشل الحملة انتقل إلى طرابلس وشارك فى المعارك ضد الإيطاليين، وهو شقيق أنور باشا وزير الحربية العثمانية. انظر: مصطفى على هويدى، «رحيل أحمد الشريف إلى تركيا». مجلة الشهيد، مركز جهاد الليبيين، العدد٩ (١٩٨٨) ص١٢٣.

- أنور باشا: جنرال تركى ولد فى استانبول ١٨٨١ تخرج من المدرسة الحربية ١٨٩٩ وفى ١٩٠٢ تخرج من الأكاديمية العسكرية ثم رقى إلى رتبة رائد وعين ملحقا عسكريا فى برلين وفى ١٩١٣ رقى إلى رتبة لواء وفى ١٩١٤ عين وزيرا للحربية وفى خلال وزارته عمد إلى رفع مستوى الجيش واستخدم النظم الألمانية، واستشهد فى أغسطس ١٩٢٢. انظر: أحمد عطية الله، القاموس الإسلامى، ج١، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣) ص٢٠٥، ٢٠٦.

- جعفر العسكرى (١٨٨٥- ١٩٣٦): قائد عراقى ولد فى بغداد وتخرج من المدرسة الحربية بالأستانة، ثم ببرلين، وحارب مع الأتراك فى القصيم ١٩٠٥ واشترك فى حرب البلقان وأرسل ١٩١٥ على ظهر غواصة ألمانية إلى برقة لحمل السنوسيين على مهاجمة حدود مصر الغربية، اعتقله الإنجليز جريحا فى مرسى مطروح ١٩١٦ وعندما قامت الثورة فى الحجاز على الترك أفرج عنه، كان وزيرا للدفاع فى أول حكومة وطنية فى العراق ثم عين وزيرا مفوضا للعراق فى لندن وعندما قامت الثورة العراقية ١٩٣٥ كان وزيرا للدفاع وقد أعدمته الثورة رميا بالرصاص انظر: خير الدين الزركلى، قاموس الأعلام، الجزء الرابع (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٨) ص١٢٥؛ أحمد عطية الله، القاموس

الإسلامى، ج١ مرجع سابق، ص٦١٢؛ زكى محمد مجاهد، مرجع سابق، ج١، ص١٦٠، ١٦١.

١٦- هو، مايلز لامبسون Miles, Lampson والملقب فيما بعد بلورد كليرن Lord Killearn ولد عام ١٨٨٠، والتحق بالعمل الدبلوماسى عام ١٩٠٣، واصبح المندوب السامى البريطانى لمصر والسودان ١٩٣٤-١٩٣٦ وسفيرا فى مصر ١٩٣٦-١٩٤٦.

١٧- هو الملك فاروق.

١٨- الصحيح هو حسن صبرى الذى تولى رئاسة الوزارة المصرية للمرة الأولى ٢٧ يونيه ١٩٤٠-١٤ نوفمبر ١٩٤٠، وقد توفى فى البرلمان يوم ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ انظر: النظارات والوزارات المصرية، ج١، جمع وترتيب فؤاد كرم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤) ط٢، ص٢٨٩- ٢٩٢.

١٩- حسين سرى: تولى رئاسة الوزارة المصرية خمس مرات:

المرة الأولى ١٥ نوفمبر ١٩٤٠ إلى ٣١ يوليو ١٩٤١ والمرة الثانية من ٣١ يوليو ١٩٤١ إلى ٤ فبراير ١٩٤٢ والمرة الثالثة من ٢٥ يوليو ١٩٤٩ إلى ٣ نوفمبر ١٩٤٩ والمرة الرابعة من ٣ نوفمبر ١٩٤٩ إلى ١٢ يناير ١٩٥٠ والمرة الخامسة من ٢ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٢ يوليو ١٩٥٢. انظر: النظارات والوزارات المصرية، ج١، مرجع سابق، ص٤٢١.

٢٠- يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ هو الحادث التاريخى المشهور، حيث اقتحمت الدبابات قصر عابدين وأرغم السفير البريطانى الملك فاروق على ضرورة تغيير الوزارة وتولى النحاس باشا الوزارة الجديدة.

٢١- انتخب صالح حرب رئيسا للمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة بالإجماع من مجلس الإدارة بعد وفاة عبدالحميد سعيد وكان ذلك فى يوليو ١٩٤٠م.

٢٢- أنشئت أول جمعية للهلال الأحمر ١٨٧٦ فى أثناء حرب تركيا مع الصرب، للقيام بالمساعدة الطبية أسوة بالصليب الأحمر، وأنشئت جمعية الهلال الأحمر المصرى ١٩١١ فى أثناء حرب طرابلس، لتقديم المعونة الطبية والمادية لمنكوبى الحرب، حيث أنشأت الجمعية مستشفى لإيواء الجرحى العثمانيين عند نشوب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ وفى ١٩١٨ أمدت أهل فلسطين بمعونات مالية، وفى ١٩٢٣ صدر القانون النظامى للجمعية، وفى ١٩٢٧ افتتح مبنى الجمعية ومستشفاها. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٤ (القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، ٢٠٠١) ط٢، ص٢٥٤٤.

٢٣- الدردنيل: هو الجزء الجنوبى من المضايق التى تصل البحر الأسود بالبحر المتوسط وجميع هذه المضايق (الدردنيل وبحر مرمرة والبسفور) والشواطئ المطلة عليها تحت السيادة التركية حاليا. ولأهميتها العسكرية حاول الحلفاء الاستيلاء عليها إبان الحرب العالمية الأولى ولكنهم عادوا بخسائر فادحة. وبعد انتهاء تلك الحرب وانهيار الإمبراطورية العثمانية استرد الحلفاء الدردنيل، ومنحت شبه جزيرة غاليبولى إلى اليونان. إلا أن انتصارات الكماليين على اليونان وحلفائهم أدت إلى عقد معاهدة لوزان فى ٤ أغسطس ١٩٢٣ التى عززت بمعاهدة مونترو فى ٢٠ يوليه ١٩٣٦ فعادت السيادة التركية كاملة على المضايق وأعيد تحصينها. انظر: أحمد عطية الله، القاموس السياسى، مرجع سابق، ص١٧٤.

٢٤- الاميرالاى سنو بك: هو ضابط بريطانى برتبة عميد كان مفتشا للحدود الغربية، وقد تعقب محمد صالح حرب عندما قام ومعه قبائل أولاد على بثورة ضد الإنجليز، وأعد له صالح حرب كمين فى وادى ماجد فى نوفمبر ١٩١٥ أوقع به وبقواته وقتل فى هذا الكمين. انظر: محمد سيد كيلانى، الغزو

الإيطالى على ليبيا والمقالات التى كتبت فى الصحف المصرية ما بين ١٩١١ - ١٩١٧، (القاهرة: دار الفرجانى، ١٩٩٦) ص٢٥٥، ٢٥٦؛ مصطفى على هويدى، الحركة الوطنية فى شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص٧٣.

٢٥- المقصود هو الخديو عباس حلمى الثانى (١٨٧٤- ١٩٤٤) الذى كان فى الأستانة عند نشوب الحرب العالمية الأولى، فتأخرت عودته واتخذت الحكومة البريطانية تأخره وسيلة لخلعه وعينت السلطان حسين كامل، وقد استقر عباس فى لوزان إلى أن ولى أحمد فؤاد فاتصلت بينهما الرسل ونزل له عباس سنة ١٩٣١ عما كان له من حق فى العرش، وبقى حياته مغتربا وتوفى فى سويسرا ودفن فى القاهرة. انظر: الزركلى، مرجع سابق، ج٣، ص٢٦٠، ٢٦١.

٢٦- القائمقام رويل بك: ضابط بريطانى برتبة عقيد وهو قومندان قسم مرسى مطروح.

٢٧- الجنرال ماكسويل (Maxwell) (١٨٥٩- ١٩٢٩) رافق الجنرال Archibald Allison مساعدا له فى معركة التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) وغادر مصر عام ١٨٨٣، وخدم فى ايرلندا وملطا عام ١٩٠٦، وتولى قيادة القوات البريطانية فى مصر وفى عام ١٩١٤ تولى القيادة العامة للجيوش البريطانية فى مصر. وقد غادر مصر عام ١٩١٦. انظر:

The Dictionary of National Biography, 1922-1930 ed. by:J.R.H. Weaver (Oxford: University Press 1993) PP 570, 571.

٢٨- هانتر (Hunter): ضابط بريطانى برتبة لواء، كان قائدا عاما لسلاح الهجانة ومديراً عاماً للسواحل والحدود والبحرية، وقد عين رئيسا للحكومة التى أنشئت بعد استيلاء صالح حرب على الواحات وسميت محافظة الغرب وشملت الحدود المصرية الغربيةواخضعت للإحكام العرفية وألحقت بالسلطة العسكرية رأساً. انظر: لطيفة محمد سالم، «الصراع العسكرى بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى مصر»، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان الثامن والعشرون والتاسع والعشرون، ١٩٨٢/١٩٨١، ص ٣٩٦.

٢٩- سيدى برانى هى قرية واقعة بالقرب من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، على الطريق الموصل من مرسى مطروح إلى السلوم، وعلى بعد ١٨٠ كيلو متر، غربى مرسى مطروح. انظر: محمد رمزى، *القاموس الجغرافى*، ج٤، مرجع سابق، ص٢٥٥.

٣٠- القومندان Comandante كلمة إيطالية معناها آمر أى من يأمر الجنود ويدير السفينة مرادف أمير وقائد وربان أنظر: طوبيا العنيسى، تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، (القاهرة. دار العرب البستانى، ١٩٨٨- ١٩٨٩)، ص٥٩.

٣١- البقجة (Bohca) جمع بقج لفظ تركى (بوغجة) بمعنى الخنق مثل بوغمق وهو قطعة من القماش تلف بها الأغراض ثم تربط أطرافها الأربعة، وقد تحفظ فيها الأوراق. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعى للمصطلحات العثمانية التاريخية، (السعودية: الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـ) السلسلة الثالثة - ٤٣، ص٦٣.

٣٢- القائمقام هوايت: أحد الضباط الإنجليز فى خفر السواحل.

٣٣- القائمقام موريس بك: أحد الضباط الإنجليز فى خفر السواحل، وقد أرسله هانتر مع صالح حرب لوقف تهريب السلاح من جهة العميد، ولكن صالح حرب استطاع خداعه، ومرت الشحنة إلى المجاهدين فى ليبيا بسلام. انظر: محمود لبيب، حماة السلوم، (القاهرة: دار الأنصار، ١٩٨٠)

ص٦٣.

٣٤- الجنرال كتشنر: Kitchener (١٨٥٠- ١٩١٦) قائد بريطاني وسياسي دخل خدمة الجيش المصرى بعد الاحتلال البريطانى وعين حاكما للسودان الشرقى عام ١٨٨٦، وحارب المهديين عام ١٨٨٩، وعين سردارا للجيش المصرى عام ١٨٩٢، وقاد الجيش المصرى الإنجليزى لاسترجاع السودان (١٨٩٦- ١٨٩٨) عمل فى جنوب إفريقيا والهند ثم عين معتمدا بريطانيا فى مصر (١٩١١ - ١٩١٤) ثم وزيرا للحربية البريطانية (١٩١٤ - ١٩١٦) عند نشوب الحرب العالمية الأولى حيث غرق فى رحلته إلى روسيا فى ٦ يونيه ١٩١٦. انظر:

The Dictionary of National Biography, 1912-1921 ed. by: H.W.C Davis and J.R.H. Weaver Tenth Impression, (Oxford: University Press 1985) PP 306 - 314.

٣٥- البكباشى تويدى: أحد الضباط الإنجليز الذين كانوا فى خفر السواحل.

٣٦- همدان: اسم يجمع عددا من قبائل اليمن، أهمها حاشد، وبكيل، ويقطنون بين مدينتى صنعاء وصعدة. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٤، مرجع سابق، ص٢٥٤٦.

٣٧- آل العاصى: عائلة العاصى من قبيلة القنيشات وهم من عرب أولاد على التى تسكن الصحراء الغربية.

٣٨- بقبق: هو نجع، واقع بقرب البحر الأبيض المتوسط، على الطريق الموصلة من مرسى مطروح إلى السلوم، وعلى بعد ٢٢٠ كيلو مترا، غربى مرسى مطروح. انظر: محمد رمزى، القاموس الجغرافى، ج٤، ص٢٥٤.

٣٩- محمود لبيب: هو الصاغ محمود لبيب أحد الضباط الذين انضموا الى صالح حرب فى ثورته ضد الإنجليز، وهو رفيق درب جهاد صالح حرب، وهو قائد جوالة الإخوان المسلمين، وقائد كل التكوينات الرياضية التى انبثقت منها التكوينات العسكرية، والتى أبلت البلاء الحسن فى حرب فلسطين ثم حرب القناة.

٤٠- الصحيح هو عام ١٨٨٩.

٤١- المقصود هو السفير لامبسون.

٤٢- الدكتور يحيى أحمد الدرديرى (٠٠٠ - ١٣٧٥هـ/ ٠٠٠٠ - ١٩٥٦م) من مؤسسى جمعية الشبان المسلمين ومن أعضاء مجلس إدارتها، واختير مراقبا عاما لها فظل يعمل لأغراضها النافعة نحو ثلاثين عاما. وتولى الاتحاد التعاونى العام بمصر. انظر: خير الدين الزركلى، قاموس الإعلام، ج٨، مرجع سابق، ص١٣٧.

٤٣- زكى على باشا: هو محمد زكى على باشا المحامى، وعضو الحزب الوطنى، وقد اعتقل أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان وكيلا لجمعية الشبان المسلمين. انظر: محمود دياب، مصدر سابق، ص٢٦٣.

٤٤- الدكتور عبدالحميد سعيد: حصل على شهادة الدكتوراه للقانون والاقتصاد السياسى من فرنسا ثم سافر إلى الآستانة وتطوع فى الجيش العثمانى فى أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٢، واشترك فى المعارك التى دارت بين العثمانيين والبلغار وأصيب فيها ورجع إلى مصر بعد السماح له بالرجوع مع غيره من المنفيين سنة ١٩٢٣م ونجح فى انتخابات مجلس النواب. وقد وقع اختيار أعضاء جمعية الشبان المسلمين لترشيحه رئيسا لها فى ديسمبر سنة ١٩٢٧ حتى وفاته فى يونيه ١٩٤٠. انظر:

محمود دياب، مصدر سابق، ص٢٥٨ - ٢٦٠.

٤٥- الصحيح هو سمارت (Smart) السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية، في مصر والملقب بعد ذلك سير والتر (Walter) والذى عين بعد ذلك وزير دولة في القاهرة ١٩٤٦- ١٩٤٨.

٤٦- توفيق دوس باشا المحامي وعضو مجلس الشيوخ. اختير عضوا في لجنة وضع المبادئ العامة للدستور وكان من أصحاب الرأى القائل بأن يوضع للأقليات نظام يضمن تمثيلها في مجلس النواب بنسبة تتفق مع عدد هذه الأقليات مما أحدث ضجة في البلاد فكان في نظر الجميع حتى الأقباط الوفديين زعيما للخوارج. تولى عدة وزارات منها وزارة الزراعة عام ١٩٢٥، والمواصلات عام ١٩٣٠. انظر: محمد السوادي، البرلمان في الميزان، ج١، ص١٨٣- ١٨٥.

٤٧- أحمد ماهر: تولى رئاسة الوزارة المصرية للمرة الأولى من ٨ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ١٥ يناير ١٩٤٥ والثانية من ١٥ يناير ١٩٤٥ حتى اغتياله في ٢٤ فبراير ١٩٤٥. انظر: النظارات والوزارات المصرية، ج١، مرجع سابق، ص٤٢١.

٤٨- محمود فهمي النقراشي: تولى رئاسة الوزارة المرة الأولى من ٢٤ فبراير ١٩٤٥ إلى ١٥ فبراير ١٩٤٦، والثانية من ٩ ديسمبر ١٩٤٦ إلى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨. انظر: النظارات والوزارات، مرجع سابق، ص٤٣٣.

٤٩- حسن فهمي رفعت: هو مسئول الأمن العام في مصر في تلك الفترة.

٥٠- الأمير محمد على توفيق: (١٨٧٥- ١٩٥٥) شقيق الخديو عباس حلمي الثاني، ولد بالقاهرة وتعلم بها وبسويسرا وآلت إليه ولاية العهد مرتين الأولى في عهد شقيقه عباس والثانية قبل أن يرزق فاروق ولدا. ورحل إلى سويسرا بعد قيام ثورة ١٩٥٢، وتوفى في (لوزان) ودفن بالقاهرة. انظر: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء، ج٦، مرجع سابق، ص٣٠٦، ٣٠٧.

٥١- فؤاد سراج الدين: محمد فؤاد سراج الدين سياسي مصرى ولد بمحافظة كفر الشيخ ١٩١٠. حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٣١، وعمل محاميا، تولى وزارات كثيرة حيث عين وزيرا للزراعة ١٩٤٢، ووزيرا للداخلية ووزيرا للشئون الاجتماعية (١٩٤٢، ١٩٤٤) ووزيرا للمواصلات ١٩٤٦، ووزيرا للداخلية ١٩٥٠، ثم وزيرا للمالية مع وزارة الداخلية ١٩٥٠- ١٩٥٢. أنظر: الموسوعة العربية العالمية، ج١٢، ط٢ (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩) ص ٢١٦، ٢١٧.

٥٢- منصور فهمي (١٨٨٦- ١٩٥٩): فيلسوف وباحث عربي، ولد بالدقهلية وبعد إتمام دراسته الابتدائية والثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية، ثم التحق ببعثة الجامعة الأهلية بفرنسا عام ١٩٠٨، فحصل على الدكتوراه من السربون ١٩١٣، وبعد عودته عين سكرتيرا لجمعية الهلال الأحمر، وتولى التدريس بالجامعة المصرية الأهلية عام ١٩٢٠ وعندما أنشئت الجامعة المصرية عين أستاذا بكلية الآداب ١٩٢٥، ثم عميد الكلية (١٩٣٣ - ١٩٣٦) فمديرا لدار الكتب ١٩٣٦، فمديرا لجامعة الإسكندرية (١٩٤٥- ١٩٤٦) وكان من أعضاء مجلس إدارة الشبان المسلمين، وعضوا بمجمع اللغة العربية وأمينا عاما لسره. انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ج٤، مرجع سابق، ص٢٣٤٥.

٥٣- عصمت: هو الجنرال عصمت باشا، ولد في أزمير (١٨٨٤)، ودخل الجيش في عام ١٩٠٢، اشترك في الحرب العالمية الأولى في الجبهة السورية، وانضم إلى الكماليين في عام ١٩١٩ واشتهر بتنظيم الجيش الوطني الذى هزم اليونانيين عند محطة اينونو، واشترك في انتصار سقاريا وكان مندوبا

لتركيا فى إمضاء معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء بصفته وزيرا للخارجية، تولى رئاسة الوزراء حتى عام ١٩٣٧، وأنتخب رئيسا للجمهورية التركية فى ١١ نوفمبر ١٩٣٨ بعد وفاة أتاتورك. إنظر: أحمد عطية الله، القاموس السياسى، مرجع سابق، ص٥٦.

٥٤- جبخانة: Ciphane = Cephanelik هى مكان حفظ الدروع فى الأصل. ثم شمل أيضا مكان حفظ البارود والقنابل والأسلحة والذخائر. انظر: سهيل صابان، مرجع سابق، ص٨١.

٥٥- الأمير عمر طوسون (١٨٧٢هـ - ١٩٤٤م) ولد فى الإسكندرية، ودرس فى سويسرا وقام بسياحة فى فرنسا وإنجلترا، ثم عاد إلى مصر وتولى إدارة أعماله بنفسه وكان يجيد اللغات التركية والعربية والفرنسية والإنجليزية وهو من المشتغلين بالعلم والآدب والمطالعة فى مختلف العلوم واشتهر بحبه لمصر والسودان ودفاعه عنهما في كل مناسبة، وهو أول من دعا إلى ارسال وفد من مصر إلي مؤتمر فرساى ١٩١٨ للمطالبة باستقلالها، و توفى بالإسكندرية عام ١٩٤٤. انظر: زكى محمد مجاهد، الأعلام الشرقية، ج١، مرجع سابق، ص٤٥، ٤٦.

٥٦- الوسام المجيدى: Macidi نوع من الأوسمة فى عهد السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١)، وكان أرفع وسام فى الدولة العثمانية. حتى استحداث الوسام العثمانى. كان له من الرتب: المرصع، الأولى، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة. انظر: سهيل صابان، مرجع سابق، ص٢٠٢.

العناوين الجانبية للذكريات

ملاحق الصور

صورة تذكارية للواء محمد صالح حرب وزير الدفاع

اللواء صالح حرب يستطلع بعض المواقع الاستراتيجية في الصحراء الغربية
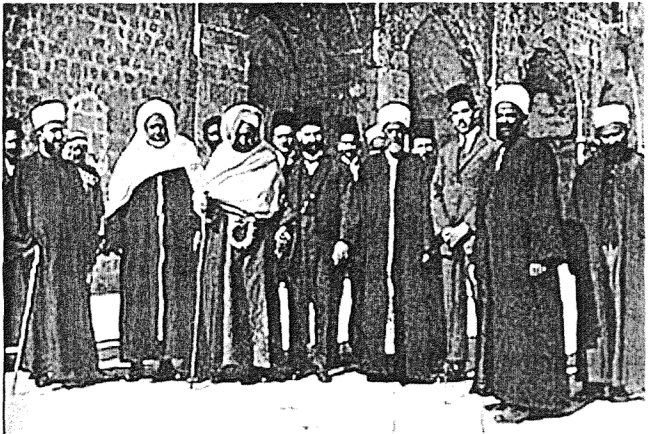
صورة تذكارية للسيد السنوسى أخذت سنة ١٩٢٣ فى القدس وإلى يمينه الشيخ محمد الروبى
والحاج أمين الحسينى وإلى يساره الأمير سعيد الجزائرى

البحر الأبيض المتوسط
طرابلس
برقة
فزان
سبها
غات
بنغازي
القاهرة
مصر
السودان
النيجر
افريقيا الاستوائية الفرنسية

اللواء محمد صالح حرب فى الزى العربى الذى أهداه له الإمام السنوسى

اللواء محمد صالح حرب

الغازى مصطفى كمـــال آتاتورك وقد اخذت هـذه الصورة عام ١٩٢٢

صفحة من جواز سـفر اللواء محمد صالح حـرب عندما كان فى تركيا

صـورة تاريخيـة نادرة للمجاهد البطل محمد صالح حرب عندما كان فى تركيـا

البكباشى محمد صالح حرب

اللواء محمد صالح حرب فى صدر شبابه
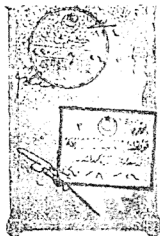
السيد أحمد الشريف السنوسى
ويقف بجانبه صالح باشا حرب بالبدلة العسكرية

صورة تاريخية للإمام المجاهد السيد أحمد السنوسى

هذه الصفحة من جواز سفر اللواء محمد صالح حرب توضح اسمه ومحل وتاريخ ميلاده الى جانب بعض البيانات الاخرى .

صفحة من جواز سفر اللواء محمد صالح حرب عندما كان فى تركيا

يستقبل اللواء محمد صالح حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين دائما ضيوف الوطن العربى والعالم الإسلامى، ويرى سيادته وهو يتحدث إلى زعيم مسلمى الكونجو

كان بين الدكتور على ماهر واللورد كليرن حب مفقود ومع ذلك فقد ابتسم ماهر وانحنى العملاق البريطانى..

91- الأداة الحكومية........ إبراهيم مدكور - مريت غالى

92- تراث العرب العلمى........ قدرى حافظ طوقان

93- المسحراتى........ محمد خطاب

94- رسالة عن السودان........ البكباشى أ.ح/ محمد نجيب

95- من زاوية القاهرة........ محمد شفيق غربال

96- حضارة الإسلام فى دار السلام........ جميل نخلة المدور

97- في الأدب المصري........ أمين الخولي

98- علم التاريخ........ هرنشو - ت. عبد الحميد العبادى

99- قصة الفكر الغربى أفكار ورجال........ كرين برنتن - ت.محمود محمو

100- المدنية والإسلام........ محمد فريد وجدى

101- الأبطال........ توماس كارليل- ت. محمد السباعي

102- ١١ يوليه وضرب الأسكندرية........ عباس محمود العقاد

103- حياة محمد (ص)........ إميل درمنغم

104- قناة السويس ج١........ د. مصطفى الحفناوى

105- قناة السويس ج٢........ د. مصطفى الحفناوى

106- قناة السويس ج٣........ د. مصطفى الحفناوى

107- قناة السويس ج٤........ د. مصطفى الحفناوى

لقد كان محمد صالح حرب متعدد الأدوار فقد شارك فى جبهات المقاومة والجهاد الإسلامى، فضلا عن دوره الوطنى فى مصر قبل الحرب وبعدها .. ومن هنا اكتسبت شخصيته أهميتها التاريخية، ليس فقط من خلال دوره الوطنى والقومى الذي قام به فى دعم وتأييد حركة الجهاد الليبى ضد الغزو الإيطالى، ثم نضال الحركة القومية التركية (1911 - 1924)، كما اكتسبت هذه الشخصية أهمية أخرى عندما انتخبت عضوا بمجلس النواب المصرى (1926 - 1930) وهناك استطاع أن يثير ويناقش عددا من القضايا الوطنية خاصة ما يتعلق بالجوانب العسكرية مثل ضرورة تأمين الصحراء المصرية، وتسليح الجيش المصرى وتحديثه، والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية...

والواقع أن القضايا التى أثارها، مع خلفيته العسكرية وخبرته فى ميادين القتال، قد أهلته لكى يعيّن وزيرا للدفاع الوطني فى وزارة علي ماهر (1939 - 1940) حين أخذ على عاتقه مهمة تطوير الجيش المصرى وتحديثه ، والتصدى لنفوذ البعثة العسكرية البريطانية وتثبيت أقدام العناصر الوطنية المصرية فيه، فضلا عن محاولته مع علي ماهر تجنيب مصر ويلات الحرب العالمية الثانية، وهى السياسة التي أدت إلى صدامه مع الإنجليز، والثابت أن نشاطه مع عزيز المصرى قد أثار الشعور الوطني داخل الجيش، خاصة لدى فئات الضباط الذين شكلوا فيما بعد خلايا الضباط الأحرار وقادوا ثورة 23 يوليو 1952 .

www.culturepalaces.com.eg
www.gocp.gov.eg
www.qatrelnada.com.eg
www.althaqafahlgadidah.com.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg

تصميم الغلاف : فكرى يونس

الثمن : ثلاثة جنيهات